(٧٣) سورة المزمل مكية
وآياتها عشرون

● **سورة المزمل** مكية ، وهي تتناول جانباً من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، في تبتله ، وطاعته ، وقيامه الليل ، وتلاوته لكتاب الله عز وجل ، ، ومحورُ السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا سميت « سورة المزَّمّل » .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداءً شفيفاً لطيفاً ينم عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿ يا أيها المزَّمّلُ قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ .

● **ثم تناولت** السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله ، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط ، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً . إنَّ ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً وأقوم قيلاً . إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾

● **وأمرت** السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين ، وهجرهم هجراً جميلاً إلى أن ينتقم الله منهم ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً . وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ .

● **ثم توَّعد** الله المشركين بالعذاب والنكال يوم القيامة ، حيث يكون فيه من الهول والفزع ما يشيب له رءوس الولدان ﴿ إنَّ لدينا

أنكالاً وجحيماً . وطعاماً ذاغصةٍ وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم ، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفةٌ من الذين معك ...﴾ إلى قوله ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ .

سورة المزمل

[٩٨٢] أخرج البزار والطبراني بسند واهٍ عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سموا هذا الرجل إسماً يصدر عنه الناس قالوا: كاهن قالوا: ليس بكاهن قالوا: مجنون قالوا: ليس بمجنون قالوا: ساحر قالوا: ليس بساحر فبلغ ذلك النبي [ﷺ] فتزمل في ثيابه فتدثر فيها فأتاه جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾(١).

[٩٨٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾(٢) قال: نزلت وهو في قطيفة.

[٩٨٤] ك.. وأخرج الحاكم عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾(٣) قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم فأنزلت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾(٤) وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس وغيره.

* * *

---

[٩٨٢] (١) سورة المزمل: الآية (١). وسورة المدثر: الآية (١).

[٩٨٣] (٢) سورة المزمل: الآية (١).

[٩٨٤] (٣) سورة المزمل: الآية (١و٢).

(٤) سورة المزمل: الآية (٢٠).

سورة المزمل

وهي عشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ①﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: أجمعوا على أن المراد بالمزمل النبي عليه السلام، وأصله المتزمل بالتاء وهو الذي تزمل بثيابه أي تلفف بها، فأدغم التاء في الزاي، ونحوه المدثر في المتدثر، واختلفوا لم تزمل بثوبه؟ على وجوه: أحدها: قال ابن عباس: أول ما جاءه جبريل عليه السلام خافه وظن أن به مسًّا من الجن، فرجع من الجبل مرتعدًا وقال: زملوني، فبينا هو كذلك إذ جاء جبريل وناداه وقال: يا أيها المزمل، وثانيها: قال الكلبي: إنما تزمل النبي عليه السلام بثيابه للتهيء للصلاة وهو اختيار الفراء، وثالثها: أنه عليه السلام كان نائمًا بالليل متزملاً في قطيفة فنودي بما يهجن تلك الحالة، وقيل: يا أيها النائم المزمل بثوبه قم واشتغل بالعبودية، ورابعها: أنه كان متزملاً في مرط لخديجة مستأنسًا بها فقيل له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ﴾ كأنه قيل: اترك نصيب النفس واشتغل بالعبودية، وخامسها: قال عكرمة: يا أيها الذي زمل أمرًا عظيمًا أي حمله والزمل الحمل، وازدمله احتمله.

المسألة الثانية: قرأ عكرمة (الْمُزَّمِّلُ) (والْمُدَّثِّرُ) بتخفيف الزاي والدال وتشديد الميم والثاء على أنه اسم فاعل أو مفعول، فإن كان على اسم الفاعل كان المفعول محذوفًا والتقدير يا أيها المزمل نفسه والمدثر نفسه وحذف المفعول في مثل هذا المقام فصيح قال تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي أوتيت من كل شيء شيئًا، وإن كان على أنه اسم المفعول كان ذلك لأنه زمل نفسه أو زمله غيره، وقرئ (يا أيها المتزمل) على الأصل.

قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④﴾

وقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله لقوله: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ وظاهر الأمر للوجوب ثم نسخ، واختلفوا في سبب النسخ على وجوه: أولها: أنه كان فرضًا قبل

أن تفرض الصلوات الخمس ثم نسخ بها، وثانيها: أنه تعالى لما قال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ فكان الرجل لا يدري كم صلى وكم بقي من الليل فكان يقوم الليل كله مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب وشق عليهم ذلك حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، فنسخ الله تعالى ذلك بقوله في آخر هذه السورة: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠] وذلك في صدر الإسلام، ثم قال ابن عباس: وكان بين أول هذا الإيجاب وبين نسخه سنة، وقال في رواية أخرى: إن إيجاب هذا كان بمكة ونسخه كان بالمدينة، ثم نسخ هذا القدر أيضًا بالصلوات الخمس، والفرق بين هذا القول وبين القول الأول أن في هذا القول نسخ وجوب التهجد بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠] ثم نسخ هذا بإيجاب الصلوات، وفي القول الأول نسخ إيجاب التهجد بإيجاب الصلوات الخمس ابتداء، وقال بعض العلماء: التهجد ما كان واجبًا قط، والدليل عليه وجوه: أولها: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] فبين أن التهجد نافلة له لا فرض، وأجاب ابن عباس عنه بأن المعنى زيادة وجوب عليك، وثانيها: أن التهجد لو كان واجبًا على الرسول لوجب على أمته لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وورود النسخ على خلاف الأصل، وثالثها: استدل بعضهم على عدم الوجوب بأنه تعالى قال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ ففوض ذلك إلى رأي المكلف وما كان كذلك لا يكون واجبًا وهذا ضعيف لأنه لا يبعد في العقل أن يقول: أوجبت عليك قيام الليل فأما تقديره بالقلة والكثرة فذاك مفوض إلى رأيك، ثم إن القائلين بعدم الوجوب أجابوا عن التمسك بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ وقالوا ظاهر الأمر يفيد الندب، لأنا رأينا أوامر الله تعالى تارة تفيد الندب وتارة تفيد الإيجاب، فلا بد من جعلها مفيدة للقدر المشترك بين الصورتين دفعًا للاشتراك والمجاز، وما ذاك إلا ترجيح جانب الفعل على جانب الترك، وأما جواز الترك فإنه ثابت بمقتضى الأصل، فلما حصل الرجحان بمقتضى الأمر وحصل جواز الترك بمقتضى الأصل كان ذلك هو المندوب، والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ أبو السمال (قُمَ الليل) بفتح الميم وغيره بضم الميم، قال أبو الفتح بن جني: الغرض من هذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين، فأي الحركات تحرك فقد حصل الغرض وحكى قطرب عنهم: (قُمُ اللَّيلَ)، (وقُلُ الْحَقُّ) [الكهف: ٢٩] برفع الميم واللام وبعُ الثوب ثم قال: من كسر فعلى أصل الباب ومن ضم أتبع ومن فتح فقد مال إلى خفة الفتح.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

اعلم أن الناس قد أكثروا في تفسير هذه الآية وعندي فيه وجهان ملخصان: الأول: أن المراد بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الثلث، والدليل عليه قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] فهذه الآية دلت على أن أكثر المقادير الواجبة الثلثان، فهذا يدل على أن نوم الثلث جائز، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد في قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

هو الثلث، فإذًا قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معناه قم ثلثي الليل ثم قال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ والمعنى أو قم نصفه، كما تقول: جالس الحسن أو ابن سيرين، أي جالس ذا أو ذا أيهما شئت، فتحذف واو العطف فتقدير الآية: قم الثلثين أو قم النصف أو انقص من النصف أو زد عليه، فعلى هذا يكون الثلثان أقصى الزيادة، ويكون الثلث أقصى النقصان، فيكون الواجب هو الثلث، والزائد عليه يكون مندوبًا، فإن قيل: فعلى هذا التأويل يلزمكم أن يكون النبي ﷺ قد ترك الواجب، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] فمن قرأ نصفه وثلثه بالخفض كان المعنى أنك تقوم أقل من الثلثين، وأقل من النصف، وأقل من الثلث، فإذا كان الثلث واجبًا كان عليه السلام تاركًا للواجب، قلنا: إنهم كانوا يقدرون الثلث بالاجتهاد، فربما أخطأوا في ذلك الاجتهاد ونقصوا منه شيئًا قليلاً فيكون ذلك أدنى من ثلث الليل المعلوم بتحديد الأجزاء عند الله، ولذلك قال تعالى لهم: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، الوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ تفسيرًا لقوله: ﴿قَلِيلٗا﴾ وهذا التفسير جائز لوجهين: الأول: أن نصف الشيء قليل بالنسبة إلى كله والثاني: أن الواجب إذا كان هو النصف لم يخرج صاحبه عن عهدة ذلك التكليف بيقين إلا بزيادة شيء قليل عليه فيصير في الحقيقة نصفًا وشيئًا، فيكون الباقي بعد ذلك أقل منه، وإذا ثبت هذا فنقول: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معناه قم الليل إلا نصفه، فيكون الحاصل: قم نصف الليل، ثم قال: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ يعني أو انقص من هذا النصف نصفه حتى يبقى الربع، ثم قال: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ يعني أو زد على هذا النصف نصفه حتى يصير المجموع ثلاثة أرباع، وحينئذ يرجع حاصل الآية إلى أنه تعالى خيره بين أن يقوم تمام النصف، وبين أن يقوم ربع الليل، وبين أن يقوم ثلاثة أرباعه، وعلى هذا التقدير يكون الواجب الذي لا بد منه هو قيام الربع، والزائد عليه يكون من المندوبات والنوافل، وعلى هذا التأويل يزول الإشكال الذي ذكرتم بالكلية لأن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقم ثلثي الليل، ولا نصفه ولا ثلثه لأن الواجب لما كان هو الربع فقط لم يلزم من ترك قيام الثلث ترك شيء من الواجبات، فزال السؤال المذكور، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ قال الزجاج: رتل القرآن ترتيلاً، بينه تبيينًا، والتبيين لا يتم بأن يعجل في القرآن، إنما يتم بأن يتبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع، قال المبرد: أصله من قولهم: ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير، وقال الليث: الترتيل تنسيق الشيء، وثغر رتل، حسن التنضيد، ورتلت الكلام ترتيلاً، إذا تمهلت فيه وأحسنت تأليفه، وقوله تعالى: ﴿تَرۡتِيلًا﴾ تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنه مما لا بد منه للقارئ.

واعلم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله،

والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومن أحب شيئًا لم يمر عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾

ذكروا في تفسير الثقيل وجوهًا: أحدها: وهو المختار عندي أن المراد من كونه ثقيلاً عظم قدره وجلالة خطره، وكل شيء نفس وعظم خطره، فهو ثَقَلٌ وثَقِيل وثَاقِل، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني كلامًا عظيمًا، ووجه النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً عظيمًا، فلا بد وأن تسعى في صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل، فإن الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره والثناء عليه، والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها، وتهيأت للتجرد التام، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية، فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنى لا جرم قال: إني إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى، وتمام هذا المعنى ما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا» وثانيها: قالوا: المراد بالقول الثقيل القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين عامة، وعلى رسول الله خاصة، لأنه يتحملها بنفسه ويبلغها إلى أمته، وحاصله أن ثقله راجع إلى ثقل العمل به، فإنه لا معنى للتكليف إلا إلزام ما في فعله كلفة ومشقة، وثالثها: روى عن الحسن: أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة، وهو إشارة إلى كثرة منافعه وكثرة الثواب في العمل به، ورابعها: المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يثقل عند نزول الوحي إليه، روي أن الوحي نزل عليه وهو على ناقته فثقل عليها، حتى وضعت جرانها، فلم تستطع أن تتحرك، وعن ابن عباس: كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد وجهه، وعن عائشة رضي الله عنها: «رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَرْفُضُ عَرَقًا»، وخامسها: قال الفراء: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي ليس بالخفيف ولا بالسفساف، لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى، وسادسها: قال الزجاج: معناه أنه قول متين في صحته وبيانه ونفعه، كما تقول: هذا كلام رزين وهذا قول له وزن إذا كنت تستجيده وتعلم أنه وقع موقع الحكمة والبيان، وسابعها: قال أبو علي الفارسي: إنه ثقيل على المنافقين، من حيث إنه يهتك أسرارهم، ومن حيث إنه يبطل أديانهم وأقوالهم وثامنها: أن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول، فجعل الثقيل كناية عن بقاء القرآن على وجه الدهر كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وتاسعها: أنه ثقيل بمعنى

أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه بالكلية، فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه فوائد ما وصل إليها المتقدمون، فعلمنا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله، فصار كالحمل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله، وعاشرها: أنه ثقيل لكونه مشتملاً على المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والفرق بين هذه الأقسام مما لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون، المحيطون بجميع العلوم العقلية والحكمية، فلما كان كذلك لا جرم كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۞ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ يقال: نَشَأَتْ تنشأُ نشأً فهي ناشئة، والإنشاء الإحداث، فكل ما حدث (فَهُوَ نَاشِئٌ) فإنه يقال للذكر ناشئ وللمؤنث ناشئة، إذا عرفت هذا فنقول في الناشئة قولان: أحدهما: أنها عبارة عن ساعات الليل، والثاني: أنها عبارة عن الأمور التي تحدث في ساعات الليل، أما القول الأول، فقال أبو عبيدة: ناشئة الليل ساعاته وأجزاؤه المتتالية المتعاقبة فإنها تحدث واحدة بعد أخرى، فهي ناشئة بعد ناشئة، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا، فمنهم من قال الليل كله ناشئة، روى ابن أبي مليكة، قال: سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة الليل، فقال الليل كله ناشئة. وقال زين العابدين رضي الله عنه: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والكسائي قالوا: لأن ناشئة الليل هي الساعة التي منها يبتدئ سواد الليل، القول الثاني: هو تفسير الناشئة بأمور تحدث في الليل، وذكروا على هذا القول وجوهًا: أحدها: قالوا: ناشئة الليل هي النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي تنهض وترتفع من نشأت السحابة إذا ارتفعت، وثانيها: ناشئة الليل عبارة عن قيام الليل بعد النوم، قال ابن الأعرابي إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل، وعندي فيه وجه ثالث: وهو أن الإنسان إذا أقبل على العبادة والذكر في الليل المظلم في البيت المظلم في موضع لا تصير حواسه مشغولة بشيء من المحسوسات ألبتة، فحينئذ يقبل القلب على الخواطر الروحانية والأفكار الإلهية، وأما النهار فإن الحواس تكون مشغولة بالمحسوسات فتصير النفس مشغولة بالمحسوسات، فلا تتفرغ للأحوال الروحانية، فالمراد من ناشئة الليل تلك الواردات الروحانية والخواطر النورانية، التي تنكشف في ظلمة الليل بسبب فراغ الحواس، وسماها ناشئة الليل لأنها لا تحدث إلا في الليل بسبب أن الحواس الشاغلة للنفس معطلة في الليل ومشغولة في النهار، ولم يذكر أن تلك الأشياء الناشئة منها تارة أفكار وتأملات، وتارة أنوار ومكاشفات، وتارة انفعالات نفسانية من الابتهاج بعالم القدس أو الخوف منه، أو تخيلات أحوال عجيبة، فلما كانت تلك الأمور الناشئة أجناسًا كثيرة لا يجمعها جامع إلا

أنها أمور ناشئة حادثة لا جرم لم يصفها إلا بأنها ناشئة الليل.

أما قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي مواطأة وملاءمة وموافقة، وهو مصدر يقال: واطأت فلانًا على كذا مواطأة ووطأة ومنه ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]أي ليوافقوا، فإن فسرنا الناشئة بالساعات كان المعنى أنها أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص، وإن فسرناها بالنفس الناشئة كان المعنى شدة المواطأة بين القلب واللسان، وإن فسرناها بقيام الليل كان المعنى مايراد من الخشوع والإخلاص، وإن فسرناها بما ذكرت كان المعنى أن إفضاء تلك المجاهدات إلى حصول المكاشفات في الليل أشد منه في النهار، وعن الحسن أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق.

المسألة الثانية: قرئ: (أشد وَطْئا) بالفتح والكسر وفيه وجهان: الأول: قال الفراء: أشد ثبات قدم، لأن النهار يضطرب فيه الناس ويتقلبون فيه للمعاش، والثاني: أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار، وهو من قولك: اشتدت على القوم وطأة سلطانهم إذا ثقل عليهم معاملتهم معه، وفي الحديث: «**اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ**» فأعلم الله نبيه أن الثواب في قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «**أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ أَحْمَزُهَا**»(١) أي أشقها. واختار أبو عبيدة القراءة الأولى، قال: لأنه تعالى لما أمره بقيام الليل ذكر هذه الآية، فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل، وأيضًا الخواطر الليلية إلى المكاشفات الروحانية أتم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قال ابن عباس: أحسن لفظًا، قال ابن قتيبة: لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع فيه الحركات ويخلص القول، ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل.

المسألة الثانية: قرأ أنس (وَأَصْوَبُ قِيلاً)، فقيل له: يا أبا حمزة إنما هي: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ فقال أنس: إن أقوم وأصوب وأهيأ واحد، قال ابن جني، وهذا يدل على أن القوم كانوا يعتبرون المعاني، فإذا وجدوها لم يلتفتوا إلى الألفاظ ونظيره ما روى أن أبا سوار الغنوي كان يقرأ: (فَحَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ)(٢) بالحاء غير المعجمة، فقيل له: إنما هو جاسوا، فقال: حاسوا وجاسوا واحد وأنا أقول: يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك تفسيرًا للفظ القرآن لا على أنه جعله نفس القرآن، إذ لو ذهبنا إلى ما قاله ابن جني لارتفع الاعتماد عن ألفاظ القرآن، ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقًا لذلك المعنى، ثم ربما أصاب في ذلك الاعتقاد، وربما أخطأ وهذا يجر إلى الطعن في القرآن، فثبت أنه حمل ذلك على ما ذكرناه.

---

(١) تقدم.

(٢) رواه أبو علي القالي في (الأمالي) (١/ ١٦٩) من طريق أبي عبد الله محمد بن الحسين قال حدثنا المازني قال سمعت أبا سوار الغنوي... فذكره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال المبرد: سبحًا أي تقلبًا فيما يجب، ولهذا سمي السابح سابحًا لتقلبه بيديه ورجليه، ثم في كيفية المعنى وجهان: الأول: إن لك في النهار تصرفًا وتقلبًا في مهماتك فلا تتفرغ لخدمة الله إلا بالليل، فلهذا السبب أمرتك بالصلاة في الليل، الثاني: قال الزجاج: أي إن فاتك من الليل شيء من النوم والراحة فلك في النهار فراغه فاصرفه إليه.

المسألة الثانية: قرئ (سبخًا) بالخاء المنقطة من فوق، وهو استعارة من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه، فإن القلب في النهار يتفرغ بسبب الشواغل، وتختلف همومه بسبب الموجبات المختلفة، واعلم أنه تعالى أمر رسوله أولاً بقيام الليل، ثم ذكر السبب في أنه لم خص الليل بذلك دون النهار، ثم بين أن أشرف الأعمال المأمور بها عند قيام الليل ما هو.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ وهذه الآية تدل على أنه تعالى أمر بشيئين أحدهما: الذكر، والثاني: التبتل، أما الذكر فاعلم أنه إنما قال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ هاهنا وقال في آية أخرى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[الأعراف: ٢٠٥] لأنه لا بد في أول الأمر من ذكر الاسم باللسان مدة ثم يزول الاسم ويبقى المسمى، فالدرجة الأولى هي المراد بقوله هاهنا: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ والمرتبة الثانية هي المراد بقوله في السورة الأخرى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وإنما تكون مشتغلاً بذكر الرب، إذا كنت في مقام مطالعة ربوبيته، وربوبيته عبارة عن أنواع تربيته لك وإحسانه إليك، فما دمت في هذا المقام تكون مشغول القلب بمطالعة آلائه ونعمائه فلا تكون مستغرق القلب به، وحينئذ يزداد الترقي فتصير مشتغلاً بذكر إلهيته، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾[البقرة: ٢٠٠] وفي هذا المقام يكون الإنسان في مقام الهيبة والخشية، لأن الإلهية إشارة إلى القهارية والعزة والعلو والصمدية، ولا يزال العبد يرقى في هذا المقام مترددًا في مقامات الجلال والتنزيه والتقديس إلى أن ينتقل منها إلى مقام الهوية الأحدية، التي كلت العبارات عن شرحها، وتقاصرت الإشارات عن الانتهاء إليها، وهناك الانتهاء إلى الواحد الحق، ثم يقف لأنه ليس هناك نظير في الصفات، حتى يحصل الانتقال من صفة إلى صفة، ولا تكون الهوية مركبة حتى ينتقل نظر العقل من جزء إلى جزء، ولا مناسبة لشيء من الأحوال المدركة عن النفس حتى تعرف على سبيل المقايسة، فهي الظاهرة لأنها مبدأ ظهور كل ظاهر، وهي الباطنة لأنها فوق عقول كل المخلوقات، فسبحان من احتجب عن العقول لشدة ظهوره واختفى عنها بكمال نوره، وأما قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن جميع المفسرين فسروا التبتل بالإخلاص، وأصل التبتل في اللغة

القطع، وقيل لمريم البتول لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة، وصدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها. وقال الليث: التبتيل تمييز الشيء عن الشيء، والبتول كل امرأة تنقبض من الرجال، لا رغبة لها فيهم. إذا عرفت ذلك فاعلم أن للمفسرين عبارات، قال الفراء: يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلى أمر الله وطاعته، وقال زيد بن أسلم التبتل: رفض الدنيا مع كل ما فيها والتماس ما عند الله، واعلم أن معنى الآية فوق ما قاله هؤلاء الظاهريون لأن قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أي انقطع عن كل ما سواه إليه والمشغول بطلب الآخرة غير متبتل إلى الله تعالى، بل التبتل إلى الآخرة والمشغول بعبادة الله متبتل إلى العبادة لا إلى الله، والطالب لمعرفة الله متبتل إلى معرفة الله لا إلى الله فمن آثر العبادة لنفس العبادة أو لطلب الثواب أو ليصير متعبدًا كاملاً بتلك العبودية للعبودية فهو متبتل إلى غير الله، ومن آثر العرفان للعرفان فهو متبتل إلى العرفان، ومن آثر العبودية لا للعبودية بل للمعبود وآثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف، فقد خاض لجة الوصول، وهذا مقام لا يشرحه المقال ولا يعبر عنه الخيال، ومن أراده فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر ولا يجد الإنسان لهذا مثالاً إلا عند العشق الشديد إذا مرض البدن بسببه وانحبست القوى وعميت العينان وزالت الأغراض بالكلية وانقطعت النفس عما سوى المعشوق بالكلية، فهناك يظهر الفرق بين التبتل إلى المعشوق وبين التبتل إلى رؤية المعشوق.

المسألة الثانية: الواجب أن يقال: وتبتل إليه تبتلاً أو يقال: بتل نفسك إليه تبتيلاً، لكنه تعالى لم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهي أن المقصود بالذات إنما هو التبتل، فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعًا إلى الله، إلا أنه لا بد أولاً من التبتيل حتى يحصل التبتل كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فذكر التبتل أولاً إشعارًا بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانيًا إشعارًا بأنه لا بد منه ولكنه مقصود بالغرض.

واعلم أنه تعالى لما أمره بالذكر أولاً ثم بالتبتل ثانيًا ذكر السبب فيه:

فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن التبتل إليه لا يحصل إلا بعد حصول المحبة، والمحبة لا تليق إلا بالله تعالى، وذلك لأن سبب المحبة إما الكمال وإما التكميل، أما الكمال فلأن الكمال محبوب لذاته إذ من المعلوم أنه يمتنع أن يكون كل شيء إنما كان محبوبًا لأجل شيء آخر، وإلا لزم التسلسل، فإذًا لا بد من الانتهاء إلى ما يكون محبوبًا لذاته، والكمال محبوب لذاته، فإن من اعتقد أن فلانًا الذي كان قبل هذا بألف سنة كان موصوفًا بعلم أزيد من علم سائر الناس مال طبعه

إليه وأحبه شاء أم أبى، ومن اعتقد في رستم أنه كان موصوفًا بشجاعة زائدة على شجاعة سائر الناس أحبه شاء أم أبى، فعلمنا أن الكمال محبوب لذاته وكمال الكمال لله تعالى، فالله تعالى محبوب لذاته، فمن لم يحصل في قلبه محبته كان ذلك لعدم علمه بكماله، وأما التكميل فهو أن الجواد محبوب والجواد المطلق هو الله تعالى فالمحبوب المطلق هو الله تعالى، والتبتل المطلق لا يمكن أن يحصل إلا إلى الله تعالى، لأن الكمال المطلق له والتكميل المطلق منه، فوجب أن لا يكون التبتل المطلق إلا إليه، واعلم أن التبتل الحاصل إليه بسبب كونه مبدأ للتكميل مقدم على التبتل الحاصل إليه بسبب كونه كاملاً في ذاته، لأن الإنسان في مبدأ السير يكون طالبًا للحصة فيكون تبتله إلى الله تعالى بسبب كونه مبدأ للتكميل والإحسان، ثم في آخر السير يترقى عن طلب الحصة كما بينا من أنه يصير طالبًا للمعروف لا للعرفان، فيكون تبتله في هذه الحالة بسبب كونه كاملاً فقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إشارة إلى الحالة الأولى التي هي أول درجات المتبتلين وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى الحالة الثانية التي هي منتهى درجات المتبتلين ومنتهى أقدام الصديقين، فسبحان من له تحت كل كلمة سر مخفي، ثم وراء هاتين الحالتين مقام آخر، وهو مقام التفويض، وهو أن يرفع الاختيار من البين، ويفوض الأمر بالكلية إليه، فإن أراد الحق به أن يجعله متبتلاً رضي بالتبتل لا من حيث إنه هو، بل من حيث إنه مراد الحق، وإن أراد به عدم التبتل رضي بعدم التبتل لا من حيث إنه عدم التبتل، بل من حيث إنه مراد الحق، وهاهنا آخر الدرجات، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ إشارة إلى هذه الحالة، فهذا ما جرى به القلم في تفسير في هذه الآية، وفي الزوايا خبايا، ومن أسرار هذه الآية بقايا ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

المسألة الثانية: ﴿رَبُّ﴾ فيه قراءتان إحداهما: الرفع، وفيه وجهان: أحدهما: على المدح، والتقدير هو رب المشرق، فيكون خبر مبتدأ محذوف، كقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الحج: ٧٢] وقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٧] أي تقلبهم متاع قليل، والثاني: أن ترفعه بالابتداء، وخبره الجملة التي هي لا إله إلا هو، والعائد إليه الضمير المنفصل، والقراءة الثانية: الخفض، وفيها وجهان: الأول: على البدل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ [المزمل: ٨]، والثاني: قال ابن عباس: على القسم بإضمار حرف القسم كقولك: الله لأفعلن وجوابه: لا إله إلا هو كما تقول والله لا أحد في الدار إلا زيد، وقرأ ابن عباس (رب المشارق والمغارب).

اما قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فالمعنى أنه لما ثبت أنه لا إله إلا هو لزمك أن تتخذه وكيلاً وأن تفوض كل أمورك إليه، وهاهنا مقام عظيم، فإنه لما كانت معرفة أنه لا إله إلا هو توجب تفويض كل الأمور إليه دل هذا على أن من لا يفوض كل الأمور إليه، فإنه غير عالم بحقيقة لا إله إلا هو، وتقريره أن كل ما سواه ممكن ومحدث، وكل ممكن ومحدث، فإنه مالم ينته إلى الواجب لذاته لم يجب، ولما كان الواجب لذاته واحدًا كان جميع الممكنات مستندة إليه، منتهية إليه وهذا هو

المراد من قوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ وقال بعضهم: ﴿وَكِيلٗا﴾ أي كفيلاً بما وعدك من النصر والإظهار.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾: المعنى إنك لما اتخذتني وكيلاً فاصبر على ما يقولون وفوض أمرهم إلي فإنني لما كنت وكيلاً لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك، واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين كيفية معاملتهم مع الله، وكيفية معاملتهم مع الخلق، والأول أهم من الثاني، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطًا للناس أو مجانبًا عنهم فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد فيقع في الغموم والأحزان، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين، والهجر الجميل أنْ يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم في الأفعال مع المداراة والإغضاء وترك المكافأة، ونظيره ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣] ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] قال المفسرون: هذه الآية إنما نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال، وقال آخرون: بل ذلك هو الأخذ بإذن الله فيما يكون أدعى إلى القبول فلا يرد النسخ في مثله وهذا أصح.

قوله تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾.

اعلم أنه إذا اهتم إنسان بمهم وكان غيره قادرًا على كفاية ذلك المهم على سبيل التمام والكمال قال له: ذرني أنا وذاك أي لا حاجة مع اهتمامي بذاك إلى شيء آخر وهو كقوله: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾ [القلم: ٤٤] وقوله: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ بالفتح التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرة يقال: أَنْعَمَ بك ونَعِمَك عينًا أي أسرَّ عينك وهم صناديد قريش وكانوا أهل تنعم وترفه ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ فيه وجهان أحدهما: المراد من القليل الحياة الدنيا، والثاني: المراد من القليل تلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر، فإن الله أهلكهم في ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ۝١٤﴾

ثم ذكر كيفية عذابهم عند الله فقال: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

أي إن لدينا في الآخرة ما يضاد تنعمهم في الدنيا، وذكر أمورًا أربعة: أولها: قوله: ﴿أَنكَالًا﴾ واحدها نَكَلٌ ونِكْل، قال الواحدي: النِّكْل: القيد، وقال صاحب الكشاف: النكل القيد الثقيل وثانيها: قوله: ﴿وَجَحِيمًا﴾ ولا حاجة به إلى التفسير، وثالثها: قوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ الغصة ما يغص به الإنسان، وذلك الطعام هو الزقوم والضريع كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] قالوا: إنه شوك كالعوسج يأخذ بالحلق يدخل ولا يخرج، ورابعها: قوله: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ والمراد منه سائر أنواع العذاب، واعلم أنه يمكن حمل هذه المراتب الأربعة على العقوبة الروحانية، أما الأنكال فهي عبارة عن بقاء النفس في قيد التعلقات الجسمانية واللذات البدنية، فإنها في الدنيا لما اكتسبت ملكة تلك المحبة والرغبة، فبعد البدن يشتد الحنين، مع أن آلات الكسب قد بطلت فصارت تلك كالأنكال والقيود المانعة له من التخلص إلى عالم الروح والصفاء، ثم يتولد من تلك القيود الروحانية نيران روحانية، فإن شدة ميلها إلى الأحوال البدنية وعدم تمكنها من الوصول إليها، يوجب حرقة شديدة روحانية كمن تشتد رغبته في وجدان شيء، ثم إنه لا يجده فإنه يحترق قلبه عليه، فذاك هو الجحيم، ثم إنه يتجرع غصة الحرمان وألم الفراق، فذاك هو المراد من قوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ثم إنه بسبب هذه الأحوال بقي محرومًا عن تجلي نور الله والانخراط في سلك المقدسين، وذلك هو المراد من قوله: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ والتنكير في قوله: ﴿وَعَذَابًا﴾ يدل على أن هذا العذاب أشد مما تقدم وأكمل، واعلم أني لا أقول المراد بهذه الآيات هو ما ذكرته فقط، بل أقول إنها تفيد حصول المراتب الأربعة الجسمانية، وحصول المراتب الأربعة الروحانية، ولا يمتنع حمله عليهما، وإن كان اللفظ بالنسبة إلى المراتب الجسمانية حقيقة، وبالنسبة إلى المراتب الروحانية مجازًا متعارفًا مشهورًا.

ثم إنه تعالى لما وصف العذاب، أخبر أنه متى يكون ذلك فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال الزجاج: ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقول: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢] أي ننكل بالكافرين ونعذبهم يوم ترجف الأرض.

المسألة الثانية: الرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة، والكثيب: القطعة العظيمة من الرمل تجتمع محدودبة وجمعه الكثبان، وفي كيفية الاشتقاق قولان: أحدهما: أنه من كثب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول، والثاني: قال الليث: الكثيب نثر التراب أو الشيء يرمى به، والفعل اللازم انكثب ينكثب انكثابًا، وسمي الكثيب كثيبًا، لأن ترابه دقاق، كأنه مكثوب منثور بعضه على بعض لرخاوته، وقوله: ﴿مَّهِيلًا﴾ أي سائلًا قد أسيل، يقال: تراب مهيل ومهيول أي مصبوب ومسيل. الأكثر في اللغة مهيل، وهو مثل قولك مكيل ومكيول، ومدين ومديون، وذلك أن الياء تحذف منه الضمة فتسكن، والواو أيضًا ساكنة، فتحذف الواو لالتقاء الساكنين ذكره الفراء والزجاج، وإذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى يفرق تركيب أجزاء الجبال وينسفها نسفًا

ويجعلها كالعهن المنفوش، فعند ذلك تصير كالكثيب، ثم إنه تعالى يحركها على ما قال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]وقال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]وقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠] فعند ذلك تصير مهيلاً، فإن قيل لم لم يقل: وكانت الجبال كثبانًا مهيلة؟ قلنا: لأنها بأسرها تجتمع فتصير كثيبًا واحدًا مهيلاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾

واعلم أنه تعالى لما خوف المكذبين ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١]بأهوال القيامة خوفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا.

فقال تعالى:﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ واعلم أن الخطاب لأهل مكة والمقصود تهديدهم بالأخذ الوبيل، **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول:لِمَ نكر الرسول ثم عُرِّف؟ الجواب: التقدير أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه فأخذناه أخذًا وبيلاً، فأرسلنا إليكم أيضًا رسولاً فعصيتم ذلك الرسول، فلا بد وأن نأخذكم أخذًا وبيلاً.

السؤال الثاني:هل يمكن التمسك بهذه الآية في إثبات أن القياس حجة؟ والجواب: نعم لأن الكلام إنما ينتظم لو قسنا إحدى الصورتين على الأخرى، فإن قيل: هب أن القياس في هذه الصورة حجة، فلم قلتم: إنه في سائر الصور حجة، وحينئذ يحتاج إلى قياس سائر القياسات على هذا القياس، فيكون ذلك إثباتًا للقياس بالقياس، وإنه غير جائز؟ قلنا: لا نثبت سائر القياسات بالقياس على هذه الصورة، وإلا لزم المحذور الذي ذكرتم، بل وجه التمسك هو أن نقول: لولا أنه تمهد عندهم أن الشيئين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظنًّا يجب اشتراكهما في الحكم، وإلا لما أورد هذا الكلام في هذه الصورة، وذلك لأن احتمال الفرق المرجوح قائم هاهنا فإن لقائل أن يقول: لعلهم إنما استوجبوا الأخذ الوبيل بخصوصية حالة العصيان في تلك الصورة وتلك الخصوصية غير موجودة هاهنا، فلا يلزم حصول الأخذ الوبيل هاهنا، ثم إنه تعالى مع قيام هذا الاحتمال جزم بالتسوية في الحكم فهذا الجزم لا بد وأن يقال: إنه كان مسبوقًا بتقرير أنه متى وقع الاشتراك في المناط الظاهر وجب الجزم بالاشتراك في الحكم، وإن مجرد احتمال الفرق بالأشياء التي لا يعلم كونها مناسبة للحكم لا يكون قادحًا في تلك التسوية، فلا معنى لقولنا القياس حجة إلا هذا.

السؤال الثالث:لم ذكر في هذا الموضع قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والأمم؟ الجواب: لأن أهل مكة ازدروا محمدًا عليه الصلاة والسلام، واستخفوا به لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه وولد فيما بينهم وهو قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]

السؤال الرابع: ما معنى كون الرسول شاهدًا عليهم؟ الجواب: من وجهين: الأول: أنه شاهد عليهم يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم، الثاني: المراد كونه مبينًا للحق في الدنيا، ومبينًا لبطلان ما هم عليه من الكفر، لأن الشاهد بشهادته يبين الحق، ولذلك وصفت بأنها بينة، فلا يمتنع أن يوصف عليه الصلاة والسلام بذلك من حيث إنه بيَّن الحق، وهذا بعيد لأن الله تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدولاً خيارًا ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣] فبيَّن أنه يكون شاهدًا عليهم في المستقبل، ولأن حمله على الشهادة في الآخرة حقيقة، وحمله على البيان مجاز والحقيقة أولى.

السؤال الخامس: ما معنى الوبيل؟ الجواب: فيه وجهان: الأول: الوبيل: الثقيل الغليظ، ومنه قولهم: صار هذا وبالاً عليهم، أي أفضى به إلى غاية المكروه، ومن هذا قيل للمطر العظيم: وابل، والوبيل: العصا الضخمة، الثاني: قال أبو زيد: الوبيل الذي لا يستمرأ، وماء وبيل وخيم إذا كان غير مريء وكلأ مستوبل، إذا أدت عاقبته إلى مكروه، إذا عرفت هذا فنقول قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ يعني الغرق، قاله الكلبي ومقاتل وقتادة.

ثم إنه تعالى عاد إلى تخويفهم بالقيامة مرة أخرى

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: في الآية تقديم وتأخير، أي فكيف تتقون يومًا يجعل الولدان شيبًا إن كفرتم.

المسألة الثانية: ذكر صاحب (الكشاف) في قوله: ﴿يَوْمًا﴾ وجوهًا: الأول: أنه مفعول به، أي فكيف تتقون أنفسكم يوم القيامة وهوله إن بقيتم على الكفر، والثاني: أن يكون ظرفًا أي وكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا، والثالث: أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم، أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة، والجزاء لأن تقوى الله لا معنى لها إلا خوف عقابه.

المسألة الثالثة: أنه تعالى ذكر من هول ذلك اليوم أمرين: الأول: قوله: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان، إذا تفاقمت على الإنسان، أسرع فيه الشيب، لأن كثرة الهموم توجب انقصار الروح إلى داخل القلب، وذلك الانقصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها، يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج وذلك يوجب استيلاء البلغم على الأخلاط، وذلك يوجب ابيضاض الشعر، فلما رأوا أن حصول الشيب من لوازم كثرة

الهموم، جعلوا الشيب كناية عن الشدة والمحنة، وليس المراد أن هول ذلك اليوم يجعل الولدان شيبًا حقيقة، لأن إيصال الألم والخوف إلى الصبيان غير جائز يوم القيامة، الثاني: يجوز أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب، ولقد سألني بعض الأدباء عن قول المعري:

وَظُلْمٌ يَمْلأُ الْفَوْدَيْنِ شَيبًا[1]

وقال: كيف يفضل هذا التشبيه الذي في القرآن على بيت المعري؟ فقلت: من وجوه الأول: أن امتلاء الفودين من الشيب ليس بعجب، أما صيرورة الولدان شيبًا فهو عجيب كأن شدة ذلك اليوم تنقلهم من سن الطفولية إلى سن الشيخوخة، من غير أن يمروا فيما بين الحالتين بسن الشباب، وهذا هو المبالغة العظيمة في وصف اليوم بالشدة، وثانيها: أن امتلاء الفودين من الشيب معناه ابيضاض الشعر، وقد يبيض الشعر لعلة مع أن قوة الشباب تكون باقية فهذا ليس فيه مبالغة، وأما الآية فإنها تدل على صيرورة الولدان شيوخًا في الضعف والنحافة وعدم طراوة الوجه، وذلك نهاية في شدة ذلك اليوم، وثالثها: أن امتلاء الفودين من الشيب، ليس فيه مبالغة لأن جانبي الرأس موضع للرطوبات الكثيرة البلغمية، ولهذا السبب، فإن الشيب إنما يحدث أولاً في الصدغين، وبعده في سائر جوانب الرأس، فحصول الشيب في الفودين ليس بمبالغة إنما المبالغة هو استيلاء الشيب على جميع أجزاء الرأس بل على جميع أجزاء البدن كما هو مذكور في الآية، والله أعلم.

النوع الثاني: من أهوال يوم القيامة قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وهذا وصف لليوم بالشدة أيضًا، وأن السماء على عظمها وقوتها تنفطر فيه، فما ظنك بغيرها من الخلائق، ونظيره قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

وفيه سؤالان:

السؤال الأول: لِمَ لم يقل: منفطرة؟ الجواب من وجوه: أولها: روى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء، إنما قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ﴾ ولم يقل: منفطرة لأن مجازها مجاز السقف، تقول: هذا سماء البيت، وثانيها: قال الفراء: السماء تؤنث وتذكر، وهي هاهنا في وجوه التذكير وأنشد شعرًا:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيهِ قَوْمًا لَحِقْنَا بِالنُّجُومِ مَعَ السَّحَابِ

وثالثها: أن تأنيث السماء ليس بحقيقي، وما كان كذلك جاز تذكيره.

قال الشاعر:

وَالْعَيْنُ بِالإِثْمِدِ الْحَيْرِيِّ مَكْحُولُ

(١) هذا البيت لأبي العلاء المعري وأوله (وجنح) بدلاً من (وظلم).

وقال الأعشى:

فَـلاَ مُـزْنَـةَ وَدَقَـتْ وَدْقَـهَـا وَلاَ أَرْضَ أَبْـقَـلَ إِبْـقَـالَـهَـا

ورابعها: أن يكون السماء ذات انفطار فيكون من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، وأعجاز نخل منقعر، وكقولهم امرأة مرضع، أي ذات رضاع.

السؤال الثاني: ما معنى: ﴿مُنفَطِرٌ بِهِۦ﴾؟ الجواب من وجوه: أحدها: قال الفراء: المعنى منفطر فيه، وثانيها: أن الباء في (به) مثلها في قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به، يعني أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم وهوله، كما ينفطر الشيء بما ينفطر به، وثالثها: يجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالاً يؤدي إلى انفطارها لعظم تلك الواقعة عليها وخشيتها منها كقوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

أما قوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ فاعلم أن الضمير في قوله: ﴿وَعْدُهُۥ﴾ يحتمل أن يكون عائدًا إلى المفعول وأن يكون عائدًا إلى الفاعل، أما الأول: فأن يكون المعنى وعد ذلك اليوم مفعول أي الوعد المضاف إلى ذلك اليوم واجب الوقوع، لأن حكمة الله تعالى وعلمه يقتضيان إيقاعه، وأما الثاني: فأن يكون المعنى وعد الله واقع لا محالة لأنه تعالى منزه عن الكذب وهاهنا وإن لم يجر ذكر الله تعالى ولكنه حسن عود الضمير إليه لكونه معلومًا، واعلم أنه تعالى بدأ في أول السورة بشرح أحوال السعداء، ومعلوم أن أحوالهم قسمان: أحدهما: ما يتعلق بالدين والطاعة للمولى فقدم ذلك والثاني: ما يتعلق بالمعاملة مع الخلق وبين ذلك بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] وأما الأشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الإجمال، وهو قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١] ثم ذكر بعده أنواع عذاب الآخرة ثم ذكر بعده عذاب الدنيا وهو الأخذ الوبيل في الدنيا، ثم وصف بعده شدة يوم القيامة، فعند هذا تم البيان بالكلية فلا جرم ختم ذلك الكلام بقوله:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾

أي هذه الآيات تذكرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ واتخاذ السبيل عبارة عن الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟

ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾، **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المراد من قوله: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أقل منهما، وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز وإذا بعدت كثر ذلك.

المسألة الثانية: قرئ ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب، والمعنى أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف (والثلث) وقرئ (ونِصْفِهِ وثُلُثِهِ) بالجر أي تقوم أقل من الثلثين والنصف والثلث، لكنا بينا في تفسير قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] أنه لا يلزم من هذا أن يقال: إنه عليه الصلاة والسلام كان تاركًا للواجب وقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ وهم أصحابك يقومون من الليل هذا المقدار المذكور.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يعني أن العالم بمقادير أجزاء الليل والنهار ليس إلا الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: الضمير في ﴿أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ عائد إلى مصدر مقدر أي علم أنه لا يمكنكم إحصاء مقدار كل واحد من أجزاء الليل والنهار على الحقيقة، ولا يمكنكم أيضًا تحصيل تلك المقادير على سبيل الطعن والاحتياط إلا مع المشقة التامة، قال مقاتل: كان الرجل يصلي الليل كله مخافة أن لا يصيب ما أمر به من قيام ما فرض عليه.

المسألة الثانية: احتج بعضهم على تكليف مالا يطاق بأنه تعالى قال: ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لن تطيقوه، ثم إنه كان قد كلفهم به، ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد صعوبته لا أنهم لا يقدرون عليه كقول القائل: ما أطيق أن أنظر إلى فلان إذا استثقل النظر إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ﴾ هو عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر كقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] والمعنى أنه رفع التبعة عنكم في ترك هذا العمل كما رفع التبعة عن التائب.

قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ وفيه قولان: الأول: أن المراد من هذه القراءة الصلاة لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، أي فصلوا ما تيسر عليكم، ثم هاهنا قولان: الأول: قال الحسن: يعني في صلاة المغرب والعشاء، وقال آخرون: بل نسخ وجوب ذلك التهجد واكتفى بما تيسر منه، ثم نسخ ذلك أيضًا بالصلوات الخمس، القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ قراءة القرآن بعينها والغرض منه دراسة القرآن ليحصل الأمن من النسيان قيل: يقرأ مائة آية، وقيل: من قرأ مائة آية كتب من القانتين،

وقيل: خمسين آية ومنهم من قال: بل السورة القصيرة كافية، لأن إسقاط التهجد إنما كان دفعًا للحرج، وفي القراءة الكثيرة حرج فلا يمكن اعتبارها. وهاهنا بحث آخر وهو ما روي عن ابن عباس أنه قال: سقط عن أصحاب رسول الله ﷺ قيام الليل وصارت تطوعًا وبقي ذلك فرضًا على رسول الله ﷺ.

ثم إنه تعالى ذكر الحكمة في هذا النسخ فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

واعلم أن تقدير هذه الآية كأنه قيل: لم نسخ الله ذلك؟ فقال: لأنه علم كذا وكذا والمعنى لتعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله، أما المرضى فإنهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشتغلون في النهار بالأعمال الشاقة، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم، وهذا السبب ما كان موجودًا في حق النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] فلا جرم ما صار وجوب التهجد منسوخًا في حقه. ومن لطائف هذه الآية أنه تعالى سوى بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحلال وعن ابن مسعود: (أَيُّمَا رَجُلٍ جَلَبَ شَيْئًا إِلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الْمُسْلِمِينَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشهداء)[1] ثم أعاد مرة أخرى قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وذلك للتأكيد ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني المفروضة ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي الواجبة وقيل: زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة وإنما وجبت بعد ذلك ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه يريد سائر الصدقات، وثانيها: يريد أداء الزكاة على أحسن وجه، وهو إخراجها من أطيب الأموال وأكثرها نفعًا للفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق، وثالثها: يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال.

ثم ذكر تعالى الحكمة في إعطاء المال فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال ابن عباس: تجدوه عند الله خيرًا وأعظم أجرًا من الذي تؤخره إلى وصيتك عند الموت، وقال الزجاج: وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا لكم من متاع الدنيا، والقول ما قاله ابن عباس.

المسألة الثانية: معنى الآية: وما تقدموا لأنفسكم من خير فإنكم تجدوه عند الله خيرًا

(١) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٣/ ٤١٠) من طريق أبي نصر بشر بن الحارث قال حدثنا المعافي بن عمران وعيسى بن يونس عن فرقد السنجي عن إبراهيم عن ابن مسعود... به وفي إسناده فرقد السنجي لين الحديث كثير الخطأ.

وأعظم أجرًا إلا أنه قال: هو خيرًا للتأكيد والمبالغة، وقرأ أبو السمال (هو خَيرٌ وأعظمُ أَجْرًا) بالرفع على الابتداء والخبر، ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ لذنوبكم والتقصيرات الصادرة منكم خاصة في قيام الليل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، وفي الغفور قولان: أحدهما: أنه غفور لجميع الذنوب، وهو قول مقاتل، والثاني: أنه غفور لمن يصر على الذنب، احتج مقاتل على قوله بوجهين: الأول: أن قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتناول التائب والمصر، بدليل أنه يصح استثناء كل واحد منهما وحده عنه وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل، والثاني: أن غفران التائب واجب عند الخصم ولا يحصل المدح بأداء الواجب، والغرض من الآية تقرير المدح فوجب حمله على الكل تحقيقًا للمدح، والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة المُزَّمِّل

مَكِّيَّةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر.

وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي تليها، ذكره الماورديُّ[1]. وقال الثعلبيُّ: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ﴾ إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة[2]، وهي عشرون آية[3].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ قال الأخفش سعيد: «الْمُزَّمِّلُ» أصله: المتزمِّل، فأدغمت التاء في الزاي، وكذلك«المدَّثر»[4]. وقرأ أُبيٌّ بن كعب على الأصل: «الْمُتَزَمِّل» و«المتدثِّر»[5]، وسعيد: «الْمُزَمِّلُ»[6].

وفي أصل: «المزَّمِّل» قولان: أحدهما أنه المتحمِّل، يقال: زَمَل الشيء: إذا حمله، ومنه الزَّاملة، لأنها تحمِلُ القُمَاش[7].

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٢٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٦ دون نسبة.

(٣) في النسخ: سبع وعشرون آية، وهو خطأ. ووقعت هذه العبارة في (م) أول الكلام. وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٠٦ .

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧١٦ ، ونقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٢٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٦ ، وزاد المسير ٨/ ٣٨٨ ، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠ .

(٦) بتخفيف الزاي، وسيذكرها المصنف عن عكرمة.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٢٤. وقوله: الزاملة: هي التي يُحمل عليها من الإبل وغيرها. القاموس (زمل). والمراد بالقماش هنا: متاع البيت. الصحاح (قمش).

الثاني: أن المزَّمِّل هو المتلفِّف، يقال: تزمَّل وتدثَّر بثوبهِ إذا تغطى. وزمَّل غيره إذا غطَّاه، وكلُّ شيء لُفِّف فقد زُمِّل ودُثِّر، قال امرؤ القيس:

كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ[1]

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ هذا خطابٌ للنبيِّ ﷺ[2]، وفيه ثلاثة أقوال:

الأوّل: قول عكرمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ بالنبوَّة والملتزم للرسالة[3]. وعنه أيضاً: ياأيها الذي زُمِّل هذا الأمر، أي: حُمِّلَه ثم فتر[4]، وكان يقرأ: «يا أيها المزَمَّل» بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول، وكذلك: «المُدَثَّر»[5]. والمعنى: المزمِّل نفسه والمدثِّر نفسه، أو الذي زَمَّله غيره.

الثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ بالقرآن، قاله ابن عباس.

الثالث: المزَّمِّل بثيابه، قاله قتادة وغيره. قال النَّخَعيُّ: كان متزمِّلاً بقَطِيفةٍ[6]. عائشة: بمِرطٍ طوله أربعة عشرة ذراعاً، نصفه عليَّ وأنا نائمة، ونصفه على النبيِّ ﷺ وهو يصلي، واللهِ ما كان خَزًّا ولا قَزًّا ولا مِرعِزاءَ ولا إبرِيسماً ولا صُوفاً، كان سَداه شَعراً، ولُحْمَتُه وَبَراً[7]، ذكره الثعلبيُّ.

قلت: وهذا القول من عائشة يدلُّ على أن السورة مَدَنِيَّة، فإن النبيَّ ﷺ لم يَبْنِ بها إلَّا في المدينة، وماذُكر من أنها مكية لايصحُّ. والله أعلم.

---

(١) عجز بيت له، وصدره: كأن أبانا في أفانين وَدْقِه، وهو في ديوانه ص٢٥ ،وسلف ٧/ ٣٤٧ -٣٤٨ ، قوله: بجاد، أي: كساء مخطط. والكلام بنحوه في النكت والعيون ٦/ ١٢٤-١٢٥ .

(٢) الوسيط ٤/ ٣٧١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٢٥ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٨ .

(٤) بنحوه في الكشاف ٤/ ١٧٤-١٧٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٣-١٦٤ ، والمحتسب ٢/ ٣٣٥ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٢٥ ، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٢٤ ، والطبري ٢٣/ ٣٥٧ .

(٧) الكشاف ٤/ ١٧٤ ، والمِرْعِزاء: الزَّغَبُ الذي تحت شعر العنز، والإبريسَمُ: الحرير. القاموس (رعز- برسم) والسَّدَى من الثوب: ما يُمَدُّ طولاً في النسيج، واللُّحمة منه: ما يلحمُ به السَّدَى.

وقال الضحاك: تزمَّلَ بثيابه لمنامه[١]. وقيل: بلغه من المشركين سوء قولٍ فيه، فاشتدَّ عليه فتزمَّل في ثيابه وتدثَّر، فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وقيل: كان هذا في ابتداء ما أوحي إليه[٢]، فإنه لَمَّا سمع قول[٣] الملَك ونظر إليه؛ أخذته الرِّعدة، فأتى أهلَه فقال: «زمِّلوني دثروني» روي معناه عن ابن عباس[٤].

وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزَّمل والمدَّثر في أوَّل الأمر، لأنه لم يكن بعدُ ادّثر شيئاً من تبليغ الرسالة[٥].

قال ابن العربي[٦]: واختلف في تأويل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ فمنهم من حملَه على حقيقته، قيل له: يامن تلفَّف في ثيابه، أو في قطيفته؛ قُمْ، قاله إبراهيم وقتادة. ومنهم من حمله على المجاز، كأنه قيل له: يامن تزمَّل بالنبوَّة، قاله عكرمة[٧]. وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشدَّدة بصيغة المفعول الذي لم يسمَّ فاعله، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل.

قلت: وقد بينَّا أنها على حذف المفعول، وقد قرئ بها، فهي صحيحة المعنى.

قال[٨]: وأما من قال: إنه زُمِّل القرآن فهو صحيح في المجاز، لكنه كما قد قدَّمنا أنه لايُحتاج إليه.

الثالثة: قال السُّهَيلي[٩]: ليس المُزَّمِّل باسم من أسماء النبيِّ ﷺ، ولم يُعرف به

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٨٨ من قول السدي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في (ظ)و(ي): صوت.

(٤) الكشاف ٤/ ١٧٤ ، وأخرج نحوه الإمام أحمد(١٤٢٨٧)، والبخاري (٤) ، ومسلم(١٦١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ ، وفيه نزول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٦ بنحوه.

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٥٩ .

(٧) سلفت أقوالهم آنفاً.

(٨) يعني: ابن العربي.

(٩) في التعريف والإعلام ص١٧٧-١٧٨ .

كما ذهب إليه بعضُ الناس وعدُّوه في أسمائه عليه الصلاة والسلام، وإنما المُزَّمِّل اسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المُدَّثِّر.

وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفةُ، فإنَّ العرب إذا قصدت ملاطفةَ المخاطَب وترك المعاتبة سمَّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبيِّ ﷺ لعليٍّ حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه الترابُ، فقال له: «قُمْ يا أبا تُراب»[١] إشعاراً له أنه غير عاتب عليه، وملاطفةً له. وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة: «قم يانَوْمَان»[٢]، وكان نائماً؛ ملاطفةً له، وإشعاراً لِتركِ العَتْب والتأنيب. فقولُ اللهِ تعالى لمحمدٍ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ، ليستشعر أنه غيرُ عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيهُ لكلِّ متزمِّل راقِدٍ ليلَه؛ ليتنبه إلى قيام الليل وذكرِ الله تعالى فيه، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كلُّ من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعاً لضمة القاف[٣]. وحُكي الفتح لخفته. قال عثمان بن جنيّ[٤]: الغرضُ بهذه الحركة التبلُّغ بها هرباً من التقاء الساكنين، فبأي حركة تحرَّكت فقد وقع الغرضُ. وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدِّية إلى مفعول، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغٌ فيه، إلا أن ظرف المكان لا يتعدَّى إليه إلا بواسطة، لا تقول: قمت الدار؛ حتى تقول: قمت وسط الدار وخارجَ الدار.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سهل بن سعد.

(٢) صحيح مسلم (١٧٨٨)، وسلف ١٧/ ٨٢ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٤ ، والمحتسب ٢/ ٣٣٥ .

(٤) في المحتسب ٢/ ٣٣٦ ، ونقله عنه المصنف بواسطة الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٧٥ .

وقد قيل: إن «قم» هنا معناه: صَلِّ، عبَّر به عنه، واستعير له حتى صار عُرْفاً بكثرة الاستعمال(١).

الخامسة: «اللَّيْلَ» حدُّ الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقد تقدَّم بيانه في سورة البقرة(٢).

واختلف: هل كان قيامه فرضاً وحتماً، أو كان ندباً وحضًّا؟

والدلائل تقوِّي أن قيامه كان حتماً وفرضاً، وذلك أن الندب والحضَّ لايقع على بعض الليل دون بعض، لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت. وأيضاً فقد جاء التوقيف(٣) بذلك عن عائشة وغيرها على مايأتي.

واختلف أيضاً: هل كان فرضاً على النبيِّ ﷺ وحدَه، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته؟ ثلاثة أقوال:

الأوَّل: قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة.

الثاني: قول ابن عباس، قال: كان قيام الليل فريضة على النبيِّ ﷺ وعلى الأنبياء قبله.

الثالث: قول عائشة وابن عباس أيضاً(٤) وهو الصحيح، كما في صحيح مسلم عن زُرارة بن أوْفَى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزوَ في سبيل الله...الحديث، وفيه: فقلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: ألست تقرأ: «يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّل»؟ قلت: بلى! قالت: فإن الله عزَّ وجلَّ افترض قيامَ الليل في أوَّل هذه السورة، فقام ﷺ وأصحابُه حَوْلاً، وأمسك اللهُ عزَّ وجلَّ خاتمتَها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله عزَّ وجلَّ في آخر هذه السورة التخفيفَ، فصار قيام الليل

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٥٩-١٨٦٠ .

(٢) ٢/ ٤٩٣ .

(٣) في(م) التوقيت. والكلام في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٢٦ -١٢٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٢٥ دون قول ابن عباس: قيام الليل فريضة على النبي ﷺ وعلى الأنبياء قبله.

تطوُّعاً بعد فريضة. وذكر الحديث[١].

وذكر وكيع ويَعْلَى قالا: حدَّثنا مِسْعر عن سِماك الحنفي قال: سمعت ابن عباس يقول: لمَّا أنزل أوّل﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؛ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أوَّلها وآخرها نحو من سنة[٢].

وقال سعيد بن جبير: مكث النبيُّ ﷺ وأصحابُه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فخفَّف اللهُ عنهم[٣].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل، أي: صلِّ الليل كلَّه إلا يسيراً منه[٤]، لأن قيام جميعه على الدوام غيرُ ممكن، فاستثنى منه القليلَ لراحة الجسد. والقليلُ من الشيء مادون النصف، فحكي عن وهب بن منبِّه أنه قال: القليل مادون المعشار والسدس. وقال الكلبي ومقاتل: الثلث.

ثم قال تعالى: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ فكان ذلك تَخْفيفاً إذ لم يكن زمان القيام محدوداً، فقام الناس حتى ورمت أقدامُهم، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[٥].

وقال الأخفش[٦]: «نِصْفَهُ» أي: أو نصفَه، يقال: أعطه درهماً درهمين ثلاثةً. يريد: أو درهمين، أو ثلاثة.

وقال الزجاج[٧]: «نِصفَه» بدل من الليل و«إلَّا قَلِيلاً» استثناء من النصف. والضمير

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٦)، وهو عند الإمام أحمد(٢٤٢٦٩)

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٩٠٧).

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧ .

(٤) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٢ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٢٦ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٧١٦-٧١٧ .

(٧) في معاني القرآن له ٥/ ٢٣٩ بنحوه.

في «منه» و«عليه» للنصف. المعنى: قمْ نصفَ الليل، أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين[١]، فكأنه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن «نِصْفَهُ» بدل من قوله «قَلِيلاً»، وكان مخيراً بين ثلاث: بين قيام النصف بتمامه، وبين الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، كأن تقدير الكلام: قم الليلَ إلا نصفه، أو أقلَّ من نصفه، أو أكثر من نصفه[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «يَنزل اللهُ عزَّ وجلَّ إلى سماء الدنيا كلَّ ليلةٍ حين يمضي ثلثُ الليل الأوّل، فيقول: أنا الملِك أنا الملِك، مَن ذا الذي يدعوني فأستجيبَ له، من ذا الذي يَسألني فأعطيَه، من ذا الذي يَستغفرني فأغفرَ له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر»[٣].

ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعاً. وهو يدلُّ على ترغيب قيام ثلثي الليل.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مضى شطرُ الليل ـ أو ثلثاه ـ ينزل الله»...الحديث. رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك[٤].

وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجل يُمهل حتى يمضيَ شَطْرُ الليل الأوَّل، ثم يأمر منادياً يقول: هل من داعٍ يُستجابُ له؟ هل من مستغفر يُغفر له؟ هل من سائل يُعطَى»؟ صحَّحه أبو محمد عبد الحقِّ، فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول، وأن ذلك يكون عند نصف الليل[٥].

وخرَّج ابنُ ماجه من حديث ابن شهاب، عن أبي سَلَمة وأبي عبد الله الأغرّ، عن

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٦، وإملاء مامنَّ به الرحمن ٤/ ٤٢٤-٤٢٥ على هامش الفتوحات.

(٢) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٣، والكشاف ٤/ ١٧٥.

(٣) صحيح مسلم (٧٥٨): (١٦٩). وسلف ٥/ ٦٠.

(٤) صحيح مسلم (٧٥٨): (١٧٠و١٧١).

(٥) السنن الكبرى للنسائي (١٠٢٤٣)، والأحكام الصغرى ١/ ٢٧٨، وسلف ٥/ ٦٠.

أبي هريرة: أن رسولَ الله ﷺ قال: «ينزلُ ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ حين يبقى ثلثُ الليل الآخِرِ كلَّ ليلة، فيقول: من يَسألني فأعطيَه؟ من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يستغفرني فأغفرَله؟ حتى يطلُعَ الفجرُ». فكانوا يَستحبُّون الصلاة آخِرَ الليل على أوَّله[١].

قال علماؤنا: وبهذا الترتيب انتظم الحديثُ والقرآن، فإنهما يبصران من مشكاة واحدة[٢].

وفي الموطأ وغيره من حديث ابن عباس: بِتُّ عند خالتي ميمونة؛ حتى إذا انتصف الليلُ، أو قبله بقليل أو بعده بقليل، استيقظ رسولُ الله ﷺ، فقام إلى شَنٍّ معلَّق، فتوضأ وضوءاً خفيفاً. وذكر الحديث[٣].

السابعة: اختلف العلماءُ في الناسخ للأمر بقيام الليل، فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى آخر السورة[٤].

وقيل: قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وعن ابن عباس أيضاً: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠].

وعن عائشة أيضاً والشافعيِّ ومقاتل وابن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس[٥].

وقيل: الناسخ لذلك قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، قال أبو

---

(١) سنن ابن ماجه (١٣٦٦)، وهو عند الإمام أحمد (٧٥٩٢)، والبخاري(١١٤٥)، ومسلم(٧٥٨).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٢ .

(٣) الموطأ ١/ ١٢١ بنحوه، وهو عند البخاري (١٣٨) ومسلم (٧٦٣) (١٨٦) .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٥٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٢٥ عن ابن عباس.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٢٥ من قول عائشة، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٧ من قول مقاتل وابن كيسان.

عبد الرحمن السُّلَمي: لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ قاموا حتى وَرِمَت أقدامُهم وسُوقهم، ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾[1].

قال بعض العلماء: وهو فرض نُسخ به فرض، كان على النبيِّ ﷺ خاصة لفضله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾[2]

قلت: القول الأوَّل يعمُّ جميع هذه الأقوال، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فدخل فيها قول من قال: إن الناسخ الصلواتُ الخمس.

وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حَلْب شاةٍ[3].

وعن الحسن أيضاً أنه قال في هذه الآية: الحمد لله؛ تطوّع بعد الفريضة[4]. وهو الصحيح إن شاء الله تعالى، لِما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل للنبيِّ ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلما رأى جماعتهم[5] كرِهَ ذلك، وخشي أن يُكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيتَ كالمُغْضَب، فجعلوا يَتنحنحون ويَتفلون، فخرج إليهم فقال: «أيها الناس اكْلَفوا من الأعمال ما تُطيقون، فإن الله لايَمَلُّ من الثواب، حتى تَمَلُّوا من العمل، وإن خيرَ العمل أدومُه وإن قَلَّ». فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾. فكُتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة، حتى إن كان أحدُهم ليَربطُ الحبلَ فيتعلقُ به، فمكثوا ثمانيةَ أشهر، فرحمهم اللهُ وأنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ فردَّهم اللهُ إلى

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٢.

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧، وزاد المسير ٨/ ٣٨٩، والناسخ المنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٠-٣٩١، وورد هذا القول النووي رحمه الله بالإجماع والنصوص الصحيحة أنه لا واجب إلا الصلوات الخمس. شرح صحيح مسلم ٦/ ٢٧.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٢.

(٥) في (ظ): جماعاتهم.

الفريضة، ووضع عنهم قيامَ الليل إلا ما تطوَّعوا[١].

قلت: حديث عائشة هذا ذكره الثعلبيُّ، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله: «وإن قلّ»[٢]، وباقيه يدل على أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نَزَل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون. وقد تقدَّم عنها في صحيح مسلم: حولاً[٣]. وحكى الماورديُّ عنها قولاً ثالثاً، وهو ستة عشر شهراً، لم يذكر غيره عنها. وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أوَّل المزمِّل وآخرها سنة؛ قال: فأمَّا رسولُ الله ﷺ فقد كان فرضاً عليه.

وفي نسخه عنه قولان: أحدهما: أنه كان فرضَه عليه إلى أن قبضَه اللهُ تعالى.

الثاني: أنه نُسخ عنه كما نُسخ عن أمته.

وفي مدَّة فرضه إلى أن نُسخ قولان: أحدهما: المدَّةُ المفروضة على أمته في القولين الماضيين، يريد قول ابن عباس حولاً، وقول عائشة ستة عشر شهراً.

الثاني: أنها عشر سنين إلى أن خفَّف عنه بالنسخ زيادةً في التكليف، ليميزه بفعل الرسالة؛ قاله ابن جبير[٤].

قلت: هذا خلاف ما ذكره الثعلبيُّ عن سعيد بن جبير[٥] حَسْب ما تقدَّم فتأمله.

وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مَهَل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: اقرأه حرفاً حرفاً. وقال مجاهد:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٥٩-٣٦٠ بنحوه.

(٢) هو عند الإمام أحمد (٢٤١٢٤)، والبخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢) يعني دون قوله: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ .....الخ.

(٣) صحيح مسلم (٧٤٦)، وسلف ص٣١٧ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٢٥ ، وينظر زاد المسير ٨/ ٣٨٩ ، وأخرج قول سعيد الطبري ٢٣/ ٣٦١ دون قوله: زيادة في التكليف.

(٥) لعل صواب العبارة: ما ذكره الثعلبي عن عائشة.

أحبُّ الناس في القِراءة إلى الله أعقلُهم عنه[١].

والترتيل: التنضيدُ والتنسيق وحسن النظام؛ ومنه ثغر رَتِل ورَتَل، بكسر العين وفتحها: إذا كان حسنَ التنضيد[٢]. وتقدَّم بيانه في مقدِّمة الكتاب[٣].

وروى الحسن أن النبيَّ ﷺ مرَّ برجل يقرأ آيةً ويبكي، فقال: «ألم تسمعوا إلى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؟ هذا الترتيل»[٤]. وسمع عَلْقَمةُ رجلاً يقرأ قراءةً حسنة فقال: لقد رتَّل القرآن، فِداه أبي وأمّي[٥].

وقال أبو بكر بن طاهر: تدبَّرْ في لطائف خطابه، وطالبْ نفسَك بالقيام بأحكامه، وقلبَك بفهم معانيه، وسِرَّك بالإقبال عليه[٦].

وروى عبدُ الله بن عمرو قال: قال النبيُّ ﷺ: «يؤتَى بقارئ القرآن يومَ القيامة، فيُوقف في أوَّل درجِ الجنة، ويقال له: اقرأ وارتقِ ورتِّل كما كنت ترتلُ في الدنيا، فإن منزلكَ عند آخر آية تقرؤها» خَرَّجه أبو داود وقد تقدَّم في أوّل الكتاب[٧].

وروى أنس أن النبيَّ ﷺ كان يمدُّ صوته بالقراءة مدًّا»[٨].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٦.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٦/ ١٢٦، وتفسير الرازي ٣٠/ ١٧٥.

(٣) ١/ ٣٢.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١٩٩)، وابن أبي شيبة ١٤/ ١١ بلفظ: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ . . . .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٣.

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ٧/ ١٨٩، وأبو بكر بن طاهر، لعله الأبهري واسمه عبد الله بن طاهر، كان عالماً ورعاً، وهو من أقران الشبلي، مات قرب ٣٣٠هـ. طبقات الصوفية للسلمي ص٣٩١، والتدوين في أخبار قزوين ٣/ ٢٢٨.

(٧) سنن أبي داود (١٤٦٤)، وهو عند الإمام أحمد (٦٧٩٩)، وسلف ١/ ١٦، ولفظه: «يقال لصاحب القرآن ...» بدل: يؤتى بقارئ القرآن ...

(٨) صحيح البخاري (٥٠٤٥)، وسلف ١/ ١٨-١٩.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هو متصل بما فُرض من قيام الليل، أي: سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حملهُ؛ لأن الليل للمنام، فمن أُمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بِحَمْلٍ شديد على النفس ومجاهدةٍ للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد. وقيل: إنا سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه. قال قتادة: ثقيلٌ واللهِ فرائضه وحدوده[١]. مجاهد: حلاله وحرامه. الحسن: العمل به[٢]. أبو العالية: ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام. محمد بن كعب: ثقيلاً على المنافقين. وقيل: على الكفار[٣]؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان بضلالتهم وسبِّ آلهتهم، والكشف عما حرَّفه أهل الكتاب. السُّديُّ: ثقيل بمعنى كريم؛ مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليَّ، أي: كريم عليّ[٤]. الفرَّاء: «ثقِيلاً»: رزيناً ليس بالخفيف السَّفْساف؛ لأنه كلام ربِّنا[٥]. وقال الحسين بن الفضل: ثَقيلاً لا يحمله إلا قلبٌ مؤيَّد بالتوفيق، ونفس مزيَّنة بالتوحيد.

وقال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة[٦]. وقيل «ثَقِيلاً» أي: ثابتاً كثبوت الثقيل في محلِّه، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز، لا يزول إعجازه أبداً[٧]. وقيل: هو القرآن نفسُه؛ كما جاء في الخبر: أن النبيَّ ﷺ كان إذا أوحيَ إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها ـ يعني صدرَها ـ على

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٦، والوسيط ٤/ ٣٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٥، والواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٣.

(٣) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧.

(٤) في (م) و(ي): يكرم، وفي (ظ) نكرم. والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ١٢٧، وقول السدي منه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٩٧، ونقله عنه الرازي في تفسيره ٣٠/ ١٧٤.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٦.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٢٧.

الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه[١].

وفي الموطأ وغيره أنه عليه الصلاة والسلام سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثلَ صَلْصَلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فَيَفصِم عنّي وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرْد، فَيَفصِم عنه، وإن جبينَه ليَتفصَّد عرقاً[٢].

قال ابن العربيّ[٣]: وهذا أولى؛ لأنه الحقيقة، وقد جاء: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج:٧٨]. وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثتُ بالحنيفية السَّمْحة»[٤]. وقيل: القول في هذه السورة: هو قول لا إله إلا اللهُ؛ إذ في الخبر: «لا إله إلا الله خفيفةٌ على اللسان، ثقيلة في الميزان»[٥]؛ ذكره القشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال العلماء: ناشئة الليل، أي: أوقاته وساعاته؛ لان أوقاته تنشأ أوّلاً فأولاً؛ يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشئ، وأنشأه اللهُ فنشأ، ومنه: نشأت السحابةُ: إذا بَدَتْ[٦]،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٤ ، والطبري ٢٣/ ٣٦٥ عن هشام بن عروة، عن أبيه أن النبي ﷺ...، وأخرجه الإمام أحمد (٢٤٨٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٢) الموطأ ١/ ٢٠٢-٢٠٣ ، وهو عند الإمام أحمد (٢٥٢٥٢)، والبخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣): (٨٧). قوله: فيَفْصِمُ، أي: يُقلعُ وينجلي ما يغشاني. فتح الباري ١/ ٢٠.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٤ .

(٤) سلف ٨/ ١١٧-١١٨ من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٥) ذكره الذهبي في الميزان ٤/ ٥١٣ في ترجمة أبي حرب مولى الزُّهري، ونقل عن ابن حبان قوله فيه: يروي عن مولاه المقلوبات والأوابد لا تحلُّ عنه الرواية بحال إلا على سبيل الاعتبار... وذكر الحديث.

(٦) في (ظ) و(م): بدأت.

وأنشأها اللهُ؛ فناشئة: فاعلة من نشأت تنشأ، فهي ناشئة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]. والمراد: إن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم[١]، فالتأنيث للفظ ساعة؛ لأن كلَّ ساعة تحدث.

وقيل: الناشئة مصدر بمعنى [قيام الليل][٢] كالخاطئة والكاذبة، أي: إن نشأة[٣] الليل هي أشدُّ وطئاً.

وقيل: إن ناشئة الليل قيام الليل. قال ابن مسعود: الحبَشَة يقولون: نشأ، أي: قام[٤]. فلعله أراد أن الكلمة عربية[٥]، ولكنها شائعة في كلام الحبشة، غالبة عليهم، وإلا فليس في القرآن ما ليس في لغة العرب. وقد تقدَّم بيان هذا في مقدمة الكتاب مستوفى[٦].

الثانية: بيَّن تعالى في هذه الآية فضلَ صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظمُ للأجر، وأجلبُ للثواب.

واختلف العلماء في المراد بناشئة الليل؛ فقال ابن عُمر وأنس بن مالك: هو ما بين المغرب والعشاء[٧]، تمسكاً بأن لفظ نشأ يعطي الابتداء، فكان بالأولية أحقّ؛ ومنه قول الشاعر:

وَلولا أَنْ يُقالَ صَبَا نُصَيبٌ   لَقُلتُ بِنفسِيَ النَّشَأُ الصِّغارُ[٨]

---

(١) بعدها في (ظ): الموصوف. والكلام بنحوه في تأويل مشكل القرآن ٢٨٣-٢٨٤ .

(٢) ما بين حاصرتين زيادة تقتضيها العبارة، ينظر تفسير البغوي ٤/٤٠٨ ، والكشاف ٤/١٧٦ .

(٣) في (د): ناشئة.

(٤) الوسيط ٤/٣٧٣ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩٠ ، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٠٥ .

(٥) في (د): غريبة.

(٦) ١/ ١١٠ وما بعد.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧ .

(٨) البيت لنصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٨٨ .

وكان عليُّ بن الحسين يصلّي بين المغرب والعشاء ويقول: هذا ناشئة الليل[١]. وقال عطاء وعكرمة: إنه بدء الليل[٢]. وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هي الليل كلُّه؛ لأنه ينشأ بعد النهار[٣]، وهو الذي اختاره مالك بن أنس.

قال ابن العربيّ[٤]: وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة.

وقالت عائشة وابن عباس أيضاً ومجاهد: إنما الناشئة القيامُ بالليل بعد النوم. ومن قام أوّل الليل قبل النوم فما قام ناشئة[٥]. وقال يَمان وابن كَيْسان: هو القيام من آخر الليل[٦]. وقال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل، وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ[٧].

وفي الصحاح[٨]: وناشئة الليل: أولُ ساعاته. وقال القُتَبيُّ: إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة. وعن الحسن ومجاهد: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح[٩]. وعن الحسن أيضاً: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة[١٠]. ويقال: ما ينشأ في الليل من الطاعات؛ حكاه الجوهري[١١].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٨ ، والكشاف ٤/ ١٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩١ .

(٣) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٩٠ عن ابن عباس، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٩٩-٧٠٠ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٥ ، وما قبله منه.

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧ عن عائشة رضي الله عنها ومجاهد، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٦٧ عن مجاهد.

(٦) زاد المسير ٨/ ٣٩١ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨ .

(٨) مادة (نشأ).

(٩) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ .

(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨ .

(١١) في الصحاح (نشأ).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وابن أبي إسحاق ومجاهد وحُميد وابن محيصن وابن عامر والمغيرة وأبو حَيْوة: «وِطَاءً» بكسر الواو وفتح الطاء والمدِّ، واختاره أبو عبيد. الباقون: «وَطْئاً» بفتح الواو وسكون الطاء مقصورةً[١]، واختاره أبو حاتم؛ من قولك: اشتدت على القوم وطأة سلطانهم، أي: ثقل عليهم ما حمَّلهم من المُؤَن[٢]، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَر»[٣]، فالمعنى أنها أثقل على المصلّي من ساعات النهار، وذلك أن الليل وقتُ منامٍ وتودُّع وإجمام، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة.

ومن مدَّ فهو مصدر: واطأت وِطاءً ومواطأةً، أي: وافقته. أبو زيد: واطأتُه على الأمر مواطأة: إذا وافقتَه من الوِفاق، وفلان يواطئ اسمُه اسمي، وتواطؤوا عليه، أي: توافقوا[٤]؛ فالمعنى أشدُّ موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لانقطاع الأصوات والحركات؛ قاله مجاهد وابن أبي مُلَيكة وغيرهما. وقال ابن عباس بمعناه[٥]، أي: يواطئ السمع القلب؛ قال الله تعالى: ﴿لِيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] أي: ليوافقوا. وقيل: المعنى: أشد مِهاداً للتصرف في التفكّر والتدبّر. والوِطاء خلاف الغِطاء[٦]. وقيل: «أَشَدُّ وَطْئاً» بسكون الطاء وفتح الواو، أي: أشدّ ثباتاً[٧] من النهار؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله، فيكون ذلك أثبت للعمل

---

(١) السبعة ص٦٥٨ ، والتيسير ص٢١٦عن أبي عمرو وابن عامر. وعن مجاهد في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨، وعن ابن محيصن في القراءات الشاذة ص١٦٤ .

(٢) الكلام بنحوه في تأويل مشكل القرآن ص٢٨٤ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩١ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ ، وسلف ٤/ ٣٠٣-٣٠٤.

(٤) الصحاح (وطأ).

(٥) ينظر الوسيط ٤/ ٣٧٤ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٧٢ عن مجاهد بنحوه.

(٦) الصحاح (وطأ).

(٧) في (د): بياناً، وفي (ي): شأناً.

وأتقى[١] لما يُلهي ويشغل القلب. والوطء الثبات، تقول: وطئت الأرض بقدَمي. وقال الأخفش: أشد قياماً. الفراء: أثبت قراءةً وقياماً[٢]. وعنه: «أَشَدُّ وَطْئاً» أي: أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثارَ من العبادة، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش، فعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبيُّ: «أَشَدُّ وَطْئاً» أي: أشد نشاطاً للمصلي؛ لأنه في زمان راحته. وقال عبادة: «أَشَدُّ وَطْئاً» أي: نشاطاً للمصلّي وأخفُّ، وأثبت للقراءة[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: القراءة بالليل أقوم منها بالنهار، أي: أشد استقامة واستمراراً على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلّي ما يقرؤه. قال قتادة ومجاهد: أي: أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم[٤]. وقال أبو علي[٥]: «أَقْوَمُ قِيلاً» أي: أشد استقامة لفراغ البال بالليل. وقيل: أي: أعجل إجابة للدعاء. حكاه ابن شجرة[٦]. وقال عكرمة: عبادة الليل أتم نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأكثر بركة[٧]. وعن زيد بن أسلم: أجدر أن يتفقَّه في القرآن. وعن الأعمش قال: قرأ أنس بن مالك: «إِنَ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَصْوَبُ قِيلاً». فقيل له: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ فقال: أقوم وأصوب وأهيأ: سواء[٨]. قال أبو بكر الأنباريّ: وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال: من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب، إذا لم يخالف معنىً ولم يأتِ بغير ما أراد اللهُ وقصَد له، واحتجوا بقول أنس هذا. وهو قول لا يُعرَّج عليه ولا يُلتفت إلى قائله؛

---

(١) في (د) و(ي) وأبقى.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٧.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ بنحوه.

(٤) المصدر السابق.

(٥) بنحوه في الحجة للقراء السبعة ٦/ ٣٣٥.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٩ دون نسبة.

(٨) المحتسب ٢/ ٣٣٦ ، وأخرجه أبو يعلى (٤٠٢٢)، والطبري ٢٣/ ٣٧٣ منقطعاً.

لأنه لو قرأ بألفاظ تخالفُ ألفاظَ القرآن إذا قاربت معانيها واشتَملت على عامتها، لجاز أن يقرأ في موضع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الشكرُ للباري ملكِ المخلوقين، ويتسع الأمرُ في هذا حتى يبطل لفظُ جميع القرآن، ويكون التالي له مفترياً على الله عز وجل، كاذباً على رسولِهِ ﷺ، ولا حجة لهم في قول ابن مسعود: نزل القرآنُ على سبعة أحرف، إنما هو كقول أحدِكم: هَلُمَّ وتعالَ وأقبل؛ لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورةَ المنقولة بالأسانيد الصحاح عن النبيِّ ﷺ إذا اختلفت ألفاظُها، واتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في «هلمَّ وتعال، وأقبل». فأما ما لم يقرأ به النبيُّ ﷺ وأصحابه وتابِعوهم ﷺ، فإنه مَن أورد حرفاً منه في القرآن بَهت ومال[١] وخَرَج من مذهب الصواب. قال أبو بكر: والحديث الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة حديثٌ لا يصح عن أحدٍ من أهل العلم[٢]؛ لأنه مبني على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به، من قبل أن الأعمش رأى أنساً ولم يسمع منه.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة، أي: تصرُّفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً[٣]. والسَّبْح: الجري والدوران، ومنه السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه. وفرس سابح: شديدُ الجري[٤]؛ قال امرؤ القيس:

مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى ... أَثَرْنَ غُباراً[٥] بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ[٦]

(١) بدلها في (ظ): فقد كذبه وخانه.

(٢) في (د) و(ظ): لا يصحح مذهب أهل العلم. وفي (ي): لا يصحح مذهبَه أهل العلم.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٤ .

(٤) الكلام بنحوه في الصحاح (سبح)، والوسيط للواحدي ٤/ ٣٧٤ .

(٥) في (م): الغبار. والمثبت من (د) و(ي) والديوان.

(٦) ديوان امرئ القيس ص٢٠ ، قال شارحه: قوله: مِسَحٍّ، أي: يسح العدوَ سحًّا مثل سحِّ المطر، وهو انصبابه. والسابحات: التي تبسط يديها إذا عَدَت فكأنها تسبح. والونى: الفتور. والكديد: ما غلظ من =

وقيل: السَّبْحُ الفراغ، أي: إن لك فراغاً للحاجات بالنهار[١]. وقيل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا﴾ أي: نوماً، والتسبّح التمدُّد؛ ذكره الخليل. وعن ابن عباس وعطاء: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ يعني فراغاً طويلاً لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك[٢]. وقال الزجاج[٣]: إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ للاستدراك.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وأبو وائل: «سَبْخاً» بالخاء المعجمة[٤]. قال المهدويُّ: ومعناه النوم؛ روي ذلك عن القارئين بهذه القراءة. وقيل: معناه الخفة والسَّعة والاستراحة؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ لعائشة وقد دعت على سارق ردائها: «لاتُسبِّخِي [عنه] بدعائك عليه»[٥] أي: لاتخفِّفي عليه إثمَه، قال الشاعر:

فَسَبِّخْ عليكَ الْهَمَّ واعلم بِأَنَّهُ إذا قَدَّرَ الرحمنُ شيئاً فَكَائِنُ

الأصمعيُّ: يقال: سَبَّخ اللهُ عنك الحُمَّى، أي: خفَّفها. وسَبَخ الحَرُّ: فتر وخَفَّ. والتَّسبِيخ: النومُ الشديد[٦]. والتَّسبيخ أيضاً: توسيع القطن والكَتَّان والصوف وتنفيشها، يقال للمرأة: سبِّخي قطنَك[٧] والسَّبيخُ من القطن: ما يسبَّخ بعد النَّدْف، أي: يُلفُّ لتغزله المرأة، والقطعة منه سَبِيخة، وكذلك من الصوف والوبر. ويقال لقطع القطن: سبائخ، قال الأخطل[٨] يصف القُنَّاص والكلاب:

= الأرض. والمركَّل: الذي ركلته الخيل بحوافرها، فأثارت الغبار لصلابتها وشدة وقعها. والمعنى: أن هذا المسحّ بمنزلة السابحات.

(١) بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٩ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٢٧ .

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٠ ، وينظر تفسير الرازي ٣٠/ ١٧٧ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٤ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢٤١٨٣)، وأبو داود (١٤٩٧)، بلفظ: «لا تُسَبِّخي عنه» وسلف ٧/ ٢٠١ واللفظ أعلاه في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٩ ، والفائق للزمخشري والنهاية لابن الأثير (سبخ). وما بين حاصرتين منها.

(٦) الصحاح (سبخ).

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٧ .

(٨) في ديوانه ص١١٥ .

فـأرسَـلُـوهُـنَّ يُـذْرِيـنَ الـتّـرابَ كـمـا يُـذْرِي سَـبَـائـخَ قُـطْـنٍ نَـدْفُ أوْتَـارِ

وقال ثعلب: السَّبْخ ـ بالخاء ـ التردّدُ والاضطراب، والسَّبْخ أيضاً السكون، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «الحُمّى من فيح جهنم، فسبِّخوها بالماء» أي: سكِّنوها[١]. وقال أبو عمرو: السَّبْخ: النوم والفراغ[٢].

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، وتكون بمعنى السبح، بالحاء غير المعجمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: أُدعه بأسمائه الحسنى، ليحصل لك مع الصلاة محمودُ العاقبة. وقيل: أي اقصد بعملك وجهَ ربِّك[٣]. وقال سهل[٤]: اقرأ بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم في ابتداء صلاتك توصلك بركةُ قراءتها إلى ربك، وتقطعك عمَّا سواه[٥].

وقيل: اذكر اسم ربِّك في وعده ووعيده، لتَوَفَّر على طاعته وتعدل عن معصيته[٦].

وقال الكلبيُّ: صلِّ لربِّك أي: بالنهار.

قلت: وهذا حسن، فإنه لمَّا ذكر الليل ذكَر النهار، إذ هو قَسيمُه، وقد قال

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وهو عند أحمد (٢٦٤٩)، والبخاري (٣٢٦١) ، ومسلم (٢٢١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: فأبردوها، بدل: فسبِّخوها. وفي الباب عن ابن عمر ورافع بن خديج وأبي بشير وأبي أمامة وعائشة وأسماء،رضي الله عنهم.

(٢) الصحاح (سبخ).

(٣) النكت والعيون ٦/١٢٨ .

(٤) في(د) و(ظ) سهيل. والمثبت من (م) و(ي) والمحرر الوجيز ٥/٣٨٨ ، وذكر هذا القول الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/٩٦ دون نسبة .

(٥) في(د) و(ظ) و(ي): تهواه

(٦) النكت والعيون ٦/١٢٨ .

الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢] على ما تقدَّم[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التَّبَتُّل: الانقطاع إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، أي: انقطع بعبادتك إليه، ولا تشرك به غيرَه. يقال: بتلت الشيء، أي: قطعته، ومنه قولهم: طلقها بَتَّةً بتلة، وهذه صدقة بتة بتلة، أي: بائنة منقطعة عن صاحبها، أي: قُطِع مِلكُه عنها بالكلية، ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى[٢]، ويقال للراهب: متبتّل، لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة. قال:

تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشَاءِ كأنَّها ... مَنارةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ[٣]

وفي الحديث النهي عن التبتُّل[٤]، وهو الانقطاع عن الناس والجماعات[٥]. وقيل: إن أصله عند العرب التفرد، قاله ابن عرفة. والأوَّل أقوى[٦] لِما ذكرنا. ويقال: كيف قال: تَبْتِيلاً، ولم يقل: تَبَتُّلاً؟ قيل له: لأن معنى تَبتَّل: بَتَّل نفسَه، فجيء به على معناه مراعاة لحقِّ الفواصل[٧].

الثالثة: قد مضى في «المائدة» في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [الآية: ٨٧] كراهةٌ لمن تبتَّل وانقطع وسلكَ سبيلَ الرهبانية بما فيه كفاية. قال ابن العربيّ[٨] وأما اليوم وقد مَرِجت عهودُ الناس، وخفَّت أماناتهم،

(١) ١٥/ ٤٦١.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٩، وزاد المسير ٨/ ٣٩٢.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٧، قال شارحه: قوله: مُمْسَى راهب، أي: المنارة التي تضيء في وقت إمساء الراهب.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٠١٩٢) عن سمرة بن جندب ﷺ. وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص عند أحمد (١٥٢٥)، والبخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢).

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٢٨.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٧.

(٧) الكشاف ٤/ ١٧٧.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٧-١٨٦٨، وما قبله منه.

واستولى الحرام على الحُطام، فالعُزْلة خير من الخِلْطة، والعُزْبة أفضل من التأهُّل، ولكن معنى الآية: انقطِع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله. وكذلك قال مجاهد: معناه: أخلِص له العبادة. ولم يرد التبتُّلَ، فصار التبتل مأموراً به في القرآن، منهيًّا عنه في السنة، ومتعلَّق الأمر غير متعلَّق النهي، فلا يتناقضان، وإنما بُعث ليبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، فالتبتُّل المأمور به: الانقطاعُ إلى الله بإخلاص العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. والتبتُّل المنهيُّ عنه: هو سلوك مسلَك النصارى في ترك النكاح والترهُّب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خيرُ مالِ المسلم غَنَماً يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القَطْر، يفرُّ بدينه من الفتن.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ قرأ أهلُ الحرمين وابن مُحَيْصن ومجاهد وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وحفص: «رَبُّ» بالرفع على الابتداء، والخبر: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]. وقيل: على إضمار «هو». الباقون: «رَبِّ» بالخفض[2] على نعت الربِّ تعالى في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾«رَبِّ الْمَشرقِ». ومن علم أنه ربُّ المشارق والمغارب انقطع بعمله وأملِه إليه.

﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: قائماً بأمورك[3]. وقيل: كفيلاً بما وعدَك[4].

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من الأذى والسبِّ والاستهزاء، ولا تجزع من قولهم، ولا تمتنع من دعائهم. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾أي: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن في ذلك تركَ الدعاء إلى الله. وكان هذا قبل الأمر

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨.

(٢) السبعة ص٦٥٨، والتيسير ص٢١٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨ بنحوه.

(٤) الكشاف ٤/ ١٧٧.

بالقتال، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من التَّرْك، قاله قتادة[(١)] وغيره. وقال أبو الدرداء: إنا لَنَكْشِرُ في وجوه [أقوام] ونضحك إليهم، وإن قلوبنا لتَقْليهم أو لتلعنهم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اِرض بي لعقابهم. نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين. وقال مقاتل: نزلت في المُطْعِمِين يوم بدر[(٣)] وهم عشرة. وقد تقدَّم ذكرهم في «الأنفال»[(٤)]. وقال يحيى بن سلام: إنهم بنو المغيرة. وقال سعيد ابن جُبير: أُخبرت أنهم اثنا عشر رجلاً[(٥)]. ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: أولي الغنى والترفُّه واللذة في الدنيا. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ يعني إلى مدَّة آجالهم. قالت عائشة رضي الله عنها: لمَّا نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعةُ بدر[(٦)]. وقيل: «وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً» يعني إلى مدة الدنيا[(٧)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ الأنكال: القيودُ. عن الحسن ومجاهد وغيرهما[(٨)]. واحدها نِكْل، وهو ما منع الإنسان من الحركة. وقيل: سمِّي نِكلاً، لأنه

---

(١) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٣٠-١٣١ ، وبنحوه الطبري ٢٣/ ٣٨٠ .

(٢) علقه عنه البخاري بصيغة التضعيف قبل الحديث (٦١٣١)، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٢٢ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٨١٠٣). وما بين حاصرتين من المصادر . قوله: نَكْشِرُ، أي: نتبسَّم. وتَقْلِيهم، أي: تُبغضهم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤١٠ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩٢ .

(٤) ١٠/ ٨١ وما بعد

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٢٩ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٨١ ، وأبو يعلى (٤٥٧٨).

(٧) تفسير الرازي ٣٠/ ١٨٠ .

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٣٨٣ .

يُنَكَّل به[١]. قال الشعبيُّ: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشيةَ أن يهربوا؟ لا واللهِ! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا اسْتَفَلت بهم[٢]. وقال الكلبيُّ: الأنكال: الأغلالُ، والأوّل أعرف في اللغة، ومنه قول الخنساء:

دَعــاكَ فَــقَــطَّــعْــتَ أَنْــكَــالَــهُ وقَــدْ كُــنَّ قَــبْــلَــكَ لا تُــقْــطَــعُ[٣]

وقيل: إنه أنواع العذاب الشديد، قاله مقاتل. وقد جاء أن النبيَّ ﷺ قال: «إن الله يحبُّ النَّكَل على النَّكل» بالتحريك، قاله الجوهريُّ[٤]. قيل: وما النَّكَل؟ قال: «الرجل القويُّ المجرَّب، على الفرس القويِّ المجرَّب» ذكره الماورديُّ[٥]، قال: ومن ذلك سمي القيد نِكْلاً؛ لقوته، وكذلك الغُلُّ، وكل عذاب قوي فاشتد. والجحيم: النار المؤجَّجة.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: غير سائغ، يأخذ بالحَلْق، لا هو نازل ولاهو خارج، وهو الغِسلِين والزَّقُّوم والضَّريع، قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: أنه شوك يدخل الحَلْق، فلا ينزل ولايخرج[٦].

وقال الزجاج[٧]: أي: طعامهم الضَّريع، كما قال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:٦]، وهو شوك كالعَوْسَج. وقال مجاهد: هو الزَّقُّوم[٨]، كما قال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ . طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٤]. والمعنى واحد.

---

(١) ينظر الصحاح (نكل).

(٢) ذكره عنه الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٧٧ مختصراً.

(٣) ديوان الخنساء ص٩٢، وروايته فيه: فهتكت أغلاله، بدل: فقطعت أنكاله.

(٤) في الصحاح (نكل)، وذكره أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ٢٤٥ بنحوه.

(٥) في النكت والعيون ٦/ ١٣٠، والكلام منه.

(٦) المصدر السابق، وأخرجه الطبري٢٣/ ٢٨٤.

(٧) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٢.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٨٤.

وقال حُمْران بن أَعْيَن: قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ فصعق[١].

وقال خُلَيد بن حسان: أمسى الحسنُ عندنا صائماً، فأتيته بطعامٍ، فعرضَتْ له هذه الآية: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا﴾ فقال: ارفع طعامَك. فلمَّا كانت الثانية أتيته بطعام، فعرضَتْ له هذه الآيةُ، فقال: ارفعوه. ومثله في الثالثة، فانطلق ابنه إلى ثابت البُنَاني ويزيدَ الضَّبِّيّ ويحيى البكَّاء، فحدَّثهم، فجاؤوه، فلم يزالوا به حتى شرب شَرْبة من سَوِيق[٢].

والغُصَّة: الشَّجا ـ وهو ماينْشَب في الحلق من عَظْم أو غيره ـ وجمعها: غُصَصٌ. والغَصَصُ بالفتح مصدر قولك: غَصِصْتَ يا رجل تَغَصُّ، فأنت غاصٌّ بالطعام وغصَّان، وأغصصته أنا، والمنزل غاصٌّ بالقوم، أي: ممتلئ بهم[٣].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تتحرَّك وتضطرب بمن عليها.

وانتصب «يوم» على الظرف، أي: يُنَكَّل بهم ويعذَّبون «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ». وقيل: بنزع الحافض، يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض والجبال. وقيل: العامل «ذَرني» أي: وذرني والمكذبين يومَ ترجُف الأرض والجبال.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: وتكون، والكثيب: الرملُ المجتمع قال حسان:

عَرَفْتُ دِيار زَيْنَبَ بالْكَثِيبِ كَخَطِّ الْوَحْي في الْوَرَقِ الْقشِيبِ[٤]

والمَهِيل: الذي يمرُّ تحتَ الأرجل. قال الضحاك والكلبيُّ: المَهِيل: هو الذي

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص٦٤ ،وهناد في الزهد(٢٦٧)، والطبري ٢٣/ ٣٨٥ عن حُمران مرسلاً، والذي عند أبي عبيد: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ... فصعق رسول الله ﷺ وحمران ابن أَعْين ضعيف رمي بالرفض، كما ذكر ابن حجر في التقريب .

(٢) الكشاف ٤/ ١٧٧ ، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٦ مطولاً.

(٣) الصحاح(غصص)، وينظر القاموس المحيط (شجي).

(٤) ديوان حسان ص١٢ ، وسلف ٩/ ٤٦٣ .

إذا وطئتَه بالقدم زلَّ من تحتها، وإذا أخذتَ أسفله انهال. وقال ابن عباس: «مَهِيلاً» أي: رملاً سائلاً[١] متناثراً. وأصله: مهْيول[٢]، وهو مَفْعول؛ من قولك: هِلْت عليه التراب أَهِيله هيلاً: إذا صببتَه. يقال: مَهِيل ومَهْيول، ومَكِيل ومَكْيول، ومَدِين ومَدْيون[٣]، ومَعِين ومَعْيون، قال الشاعر:

قَـد كـان قَـوْمُـك يَـحْـسَـبـونَـكَ سَـيِّـداً وإخَـالُ أَنَّـكَ سَـيِّـدٌ مَـعْـيُـونُ[٤]

وفي حديث النبيِّ ﷺ أنهم شَكَوْا إليه الجُدُوبةَ، فقال: «أتكِيلون أم تَهِيلون» قالوا: نَهِيل. قال: «كِيلوا طعامَكم يُبَارَكْ لكم فيه»[٥]. وأَهَلْت الدقيق لغة في هِلتْ، فهو مُهال ومَهِيل[٦]. وإنما حذفت الواو، لأن الياء تثقل فيها الضمة، فحذفت فسكنت هي والواو، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين[٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ يريد النبيَّ ﷺ؛ أرسله إلى قريش ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٣٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٩ .

(٣) زاد المسير ٨/ ٣٩٣ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ١٨٢ .

(٤) سلف ١٨/ ٢٥٥ .

(٥) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٤١٦ ، وابن الأثير في النهاية (هيل) ، ولفظه: أن قوماً شكوا إليه سرعة فناء طعامهم، فقال: «أتكيلون أم تهيلون؟» قالوا: نهيل. قال «فكيلوا ولا تهيلوا». وقوله: «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه» أخرجه الإمام أحمد (١٧١٧٧)، والبخاري(٢١٢٨) من حديث المقدام بن معدي كرب ﷺ، وأخرجه ـ أيضاً ـ الإمام أحمد (٢٣٥٠٨)، وابن ماجه (٢٢٣٢) من حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

(٦) الصحاح(هيل).

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٢ .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أي: كذَّب به ولم يؤمن. قال مقاتل: ذكَر موسى وفرعون، لأن أهل مكة ازدرَوا محمداً ﷺ واستخفوا به، لأنه وُلِد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى، لأنَّه ربَّاه ونشأ فيما بينهم، كما قال تعالى إخباراً عنه[1]: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[2] [الشعراء: ١٨]. قال المهدويُّ: ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدُّم ذكره[3]، ولذلك اختير في أوّل الكتب: سلام عليكم، وفي آخرها: السلام عليكم[4].

﴿وَبِيلًا﴾ أي: ثقيلاً شديداً. وضَرْبٌ وبيل وعذاب وبيل، أي: شديد، قاله ابن عباس ومجاهد[5]. ومنه مطر وابل، أي: شديد، قاله الأخفش[6]. وقال الزجاج[7]: أي: ثقيلاً غليظاً. ومنه قيل للمطر: وابل. وقيل: مُهلكاً قال:

أَكَلْتِ بَنِيكِ أَكْلَ الضَّبِّ حتى وجَدْتِ مَرَارة الْكَلَأ الْوَبِيلِ[8]

واستوبل فلان كذا، أي: لم يَحمَد عاقبته. وماء وبيل، أي: وخيم غير مريء، وكَلأٌ مستَوْبَل وطعام وبيل ومُستَوبَلٌ: إذا لم يُمْرِئ ولم يُسْتَمْرأ[9]، قال زهير:

فَقَضَّوْا منايا بَيْنَهُمْ ثم أَصْدَرُوا إِلَى كَلأٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخَّمِ[10]

وقالت الخنساء:

---

(١) قوله: إخباراً عنه، من(ظ).

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٣٨٦، والرازي ٣٠/ ١٨٣ دون نسبة.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٩ بنحوه دون نسبة.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٦٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٨٧.

(٦) الصحاح (وبل).

(٧) في معاني القرآن له ٥/ ٢٤٢، ونقله عنه الماوردي في النكت ٦/ ١٣٠.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٣٠.

(٩) الكلام بنحوه في تفسير للطبري ٢٣/ ٣٨٦، وتهذيب اللغة ١٥/ ٣٨٦.

(١٠) شرح ديوان زهير ص٢٤-٢٥، قال شارحه: فقضَّوا مناياهم، أي: أنفذوها، أي: قَتَلوا من قتلوا ثم أصدروا بعد صلحهم، فصار آخر أمرهم إلى وخامةٍ وفساد.

لَـقَـدْ أَكَـلَـتْ بَـجِـيـلَـةُ يـومَ لاقَـتْ فَـوَارِسَ مَـالِـك أَكْـلاً وبِـيـلاً[١]

والوبيل أيضاً: العصا الضخمةُ، قال:

لَـو اصْبَـحَ فـي يُـمْـنـى يَـدَيَّ زِمامُـهـا وفـي كَـفِّـيَ الأخـرى وَبـيـلٌ تُـحـاذِرُهْ

وكذلك المَوْبِل بكسر الباء، والمَوْبل[٢] أيضاً: الحُزْمة من الحطب، وكذلك الوَبيل، قال طَرفة:

عَـقِـيـلَـةُ شَـيْـخ كـالـوبِـيـل يَـلَـنْـدَد[٣]

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ هو توبيخ وتقريع، أي: كيف تتقونَ العذاب إن كفرتم. وفيه تقديم وتأخير، أي: كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم[٤]. وكذا قراءة عبد الله [٥] وعطية. قال الحسن: أي: بأيِّ صلاة تتقون العذاب؟ بأيِّ صوم تتقون العذاب؟ وفيه إضمار، أي: كيف تتقون عذاب يومٍ.

وقال قتادة: واللهِ ما يتقي مَن كفَر بالله ذلك اليوم بشيءٍ[٦]. و«يَوْماً» مفعول بـ«تَتَّقُونَ» على هذه القراءة وليس بظرف، وإن قدِّر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول «كَفَرْتُمْ»[٧]. وقال بعض المفسرين: وقف التمام على قوله: «كَفَرْتُمْ»، والابتداء «يَوْماً»، يذهب إلى أن اليوم مفعول «يجعل» والفعل لله عزَّ و جلَّ، وكأنه

(١) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب ١٩/ ٤٧٤-٤٧٥ .

(٢) في(د) و(م): الموبلة. والمثبت من (خ) و(ي) وهو الموافق لما في الصحاح (وبل) وتهذيب اللغة ١٥/ ٣٨٧ .

(٣) ديوان طرفة ص٣٨ ،وصدره: فمرت كهاةٌ ذاتُ خَيف جُلالةٌ وسلف ٨/ ٢٠٧ ، والكلام في الصحاح (وبل)، وفيه: أَلَنْدَدِ، بدل: يَلَنْدَدِ، وهوموافق لنسخة (د) .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣/ ١٨٣ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٨ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٥ ، والطبري ٢٣/ ٣٨٨ .

(٧) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٩ .

قال: يجعل الله الولدان شيباً في يوم. قال ابن الأنباري[(١)]: وهذا لا يصلح، لأن اليوم هو الذي يفعل هذا من شدَّة هوله.

المهدويُّ: والضمير في «يجعل» يجوز أن يكون لله عزَّ وجلَّ ويجوز أن يكون لليوم، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عزَّ وجلَّ إلا مع تقدير حذف، كأنه قال: يوماً يجعل الله الوالدان فيه شيباً[(٢)]. ابن الأنباري[(٣)]: ومنهم من نصب اليوم بـ «كفرتم» وهذا قبيح، لأن اليوم إذا عُلِّق بـ«كفرتم» احتاج إلى صفة «كفرتم» لـ «يوم»[(٤)]. فإن احتجَّ محتج بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها، احتججنا عليه بقراءة عبد الله: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْمَاً».

قلت: هذه القراءة ليست متواترة، وإنما جاءت على وجه التفسير. وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ«يوماً» مفعول صريح من غير صفة ولاحذفها، أي: فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يومَ القيامة والجزاء.

وقرأ أبو السَّمَّال قَعْنَب: «فكيف تتقونِ» بكسر النون على الإضافة[(٥)]. و«الْوِلْدَانَ»: الصبيانُ. وقال السُّديُّ: هم أولاد الزنا. وقيل: أولاد المشركين. والعموم أصحُّ، أي: يشيب فيه الصغير من غير كِبَر. وذلك حين يقال لآدم: «يا آدم قم فابعث بَعْث النار». على ما تقدَّم في أول سورة الحج[(٦)].

قال القُشيريُّ: ثم إن أهل الجنة يغيِّر اللهُ أحوالهم و أوصافهم على ما يريد. وقيل: هذا ضربُ مَثَل لشدَّة ذلك اليوم، وهو مجاز، لأن يوم القيامة لا يكون فيه

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٥٣ ، وما قبله منه.

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٦١ .

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٥٣-٩٥٤ .

(٤) جاءت العبارة في (م) : احتاج إلى صفة، أي كفرتم بيوم. والمثبت من (د)و(ي)، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء، والكلام منه.

(٥) ذكرها عنه ابن عادل الحنبلي في اللباب ١٩/ ٤٧٨ .

(٦) ١٤/ ٣٠٩ من حديث أنس ﷺ.

وِلدان، ولكن معناه أن هيبة ذلك اليوم بحالٍ لو كان فيه هناك صبي لَشابَ رأسُه من الهيبة. ويقال: هذا وقت الفزع، وقبل أن يُنْفَخ في الصور نفخة الصعْق، فالله أعلم.

الزمخشريّ[١]: وقد مرَّ بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحِمَ الشعر كحنك الغراب، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثَّغامة[٢]، فقال: أرِيت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمِن هول ذلك أصبحتُ كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطُّول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوانَ الشيخوخة والشيَّب.

قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾أي: متشقِّقة لشدَّته. ومعنى«بِهِ»، أي: فيه، أي: في ذلك اليوم لهوله. هذا أحسن ما قيل فيه. ويقال: مُثْقَلة به إثقالاً يؤدِّي إلى انفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] [الأعراف:١٨٧].

وقيل: «بِهِ» أي: له، أي: لذلك اليوم[٤]، يقال: فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك، والباء واللام وفي متقاربة في مثل هذا الموضع، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧] أي: في يوم القيامة. وقيل: «بِهِ» أي: بالأمر، أي: السماء مُنْفطر بما يجعل الولدان شيباً.

وقيل: منفطر بالله، أي: بأمره. وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل: منفطرة، لأن مجازها السقف، تقول: هذا سماء البيت[٥]، قال الشاعر:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إلَيْهِ قوماً ... لَحِقْنا بالسَّماءِ وبالسَّحابِ[٦]

---

(١) في الكشاف ٤/ ١٧٨ .

(٢) في (د) و(ظ): كالنعامة. وفي القاموس (ثغم) : أثغم الرأس، أي: صار كالثَّغامة بياضاً. والثغامة: نبت.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٠ بنحوه.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ١٨٤ ، والكلام بنحوه في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٤ .

(٦) البيت للفرزدق، وروايته في ديوانه ص٣٣ : ولو رفع الإله، بدل: فلو رفع السماء.

وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقال الفراء: السماء يذكر ويؤنث[(١)]. وقال أبو علي: هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. وقال أبو عليّ أيضاً: أي: السماء ذات انفطار، كقولهم: امرأة مرضع، أي: ذات إرضاع، فجرى على طريق النسب[(٢)]. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: بالقيامة والحساب والجزاء ﴿مَفْعُولًا﴾: كائناً لاشك فيه ولا خُلْف. وقال مقاتل: كان وعده بأن يظهر دينه على الدِّين كلِّه[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ يريد هذه السورة ـ أو الآيات ـ عِظَة. وقيل: آيات القرآن، إذ هو كالسورة الواحدة[(٤)]. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي: من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى رضاه ورحمته فليرغب[(٥)]، فقد أمكن له، لأنه أظهر له الحجج والدلائل. ثم قيل: نسخت بآية السيف، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٢] قال الثعلبيُّ: والأشبه أنه غير منسوخ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة:

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ١٨٥ دون نسبة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٣ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٤١٨ ، وزاد المسير ٨/ ٣٩٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٣١ .

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٠ .

(٥) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٩ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ هذه الآية تفسير لقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ كما تقدَّم[١]، وهي الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدَّم[٢].

«تَقُومُ» معناه: تصلِّي و﴿أَدْنَىٰ﴾ أي: أقل[٣].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع وأبو حَيْوة وهشام عن أهل الشام: «ثُلْثَي» بإسكان اللام. « ونصفِه وثلثِه» بالخفض قراءة العامة عطفاً على ﴿ثُلُثَيِ﴾، المعنى: تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونهُ؟[٤]. وقرأ ابن كثير والكوفيون: «وَنِصْفَهُ وَثُلُثَه» بالنصب عطفاً على «أَدْنَى»[٥] التقدير: تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفَه وثلثَه[٦]. قال الفراء[٧]: وهو أشبه بالصواب، لأنه قال أقلَّ من الثلثين، ثم ذكر نفس القِلَّةِ لا أقلَّ من القلة. قال القُشَيْري: وعلى هذه القراءة يَحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف، لخفة القيام عليهم بذلك القدر، وكانوا يزيدون، وفي الزيادة إصابة المقصود، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه، وينقصون منه. ويحتمل أنهم أُمروا بقيام نصف الليل، ورُخِّص لهم في الزيادة والنقصان، فكانوا ينتهون في الزيادة إلى قريب من الثلثين، وفي النصف إلى الثلث. ويحتمل أنهم قدِّر لهم النصف وأنقص إلى الثلث، والزيادة إلى الثلثين، وكان فيهم من يفي بذلك، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نُسخ عنهم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٦٨ .

(٢) ص٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) الوسيط ٤/ ٣٧٧ .

(٤) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٦٢ .

(٥) السبعة ص٦٥٨ ، والتيسير ص٢١٦ .

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٣٤٥ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٩٩ .

وقال قوم: إنما افترض اللهُ عليهم الربع، وكانوا ينقصون من الربع. وهذا القول تحكُّم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي: يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتَّحرِّي والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيامَ به. وقيل: لن تطيقوا قيام الليل[(١)]. والأوَّل أصح، فإنَّ قيام الليل ما فُرض كلُّه قطُّ. قال مقاتل وغيره: لمَّانزلت: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ شقَّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافةَ أن يخطئ، فانتفخت أقدامُهم، وانْتُقِعت ألوانهم، فرحمهم اللهُ وخفَّف عنهم، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾[(٢)] و«أنْ» مخفَّفة من الثقيلة، أي: علم أنكم لن تحصوه، لأنكم إن زدتم ثقُل عليكم، واحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضاً، وإن نقصتم شقَّ ذلك عليكم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: فعاد عليكم بالعفو[(٣)]، وهذا يدلُّ على أنه كان فيهم من[(٤)] ترك بعض ما أمر به. وقيل: أي: فتاب عليكم من فرض القيام إذْ عجزتم. وأصل التوبة الرجوع كما تقدَّم[(٥)]، فالمعنى: رجع لكم من تثقيلٍ إلى تخفيف، ومن عُسْرٍ إلى يُسْر.

وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحرِّي، فخفَّف عنهم ذلك التحري.

وقيل: معنى ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يخلقهما مقدَّرين، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٣٢ من قول الحسن.

(٢) ذكره عنه البغوي ٤/ ٤١١، والواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٧ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٩٧ عن قتادة.

(٣) البغوي ٤/ ٤١١، والوسيط ٤/ ٣٧٧.

(٤) في (م): في.

(٥) ١/ ٤٨٢.

كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ابن العربي[١]: تقدير الخلقة لا يتعلَّق به حكم، وإنما يربط اللهُ به ما يشاء من وظائف التكليف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المراد نفس القراءة[٢]، أي: فاقرؤوا فيما تصلُّونه بالليل ما خفَّ عليكم. قال السُّديُّ: مئة آية.

الحسن: من قرَأ مئة آية في ليلة لم يحاجّه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مئة آية كُتب من القانتين. وقال سعيد: خمسون آية[٣].

قلت: قول كعب أصحّ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كُتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المُقَنْطِرين» خرَّجه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو. وقد ذكرناه في مقدِّمة الكتاب[٤] والحمد لله.

القول الثاني: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ أي: فصلُّوا ما تيسَّر عليكم[٥]، والصلاة تسمى قرآناً؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: صلاة الفجر. ابن العربي[٦]: وهو الأصح؛ لأنه عن الصلاة أخبر، وإليها يرجع القول.

قلت: الأوّل أصحُّ حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ، والقول الثاني مجاز؛ فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٩ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرج أقوالهم الطبري ٢٣/ ٣٩٦ .

(٤) ١/ ١٨ ، والحديث لم نقف عليه في مسند أبي داود الطيالسي، و إنما هو في سنن أبي داود السجستاني (١٣٩٨).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤١٢ .

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٦٩ وما قبله منه.

الخامسة: قال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ نَسخَ قيامَ الليل ونصفه، والنقصانَ من النصف والزيادة عليه. ثم احتمل قول الله عز وجل: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ معنيين: أحدهما: أن يكون فرضاً ثابتاً[1]؛ لأنه أزيل به فرضٌ غيره. والآخر أن يكون فرضاً منسوخاً أزيل بغيره كما أزيل به غيره؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فاحتمل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أن[2] يتهجد بغير الذي فُرض عليه مما تيسَّر منه. قال الشافعيُّ[3]: فكان الواجب طلب الاستدلال بالسُّنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنةَ رسول الله ﷺ تدلُّ على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس.

السادسة: قال القُشيريُّ أبو نصر: والمشهورُ أن نسخ قيام الليل كان في حقِّ الأمة، وبقيت الفريضة في حقِّ النبيِّ ﷺ. وقيل: نسخ التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. فالهَدْيُ لابدَّ منه، كذلك لم يكن بُدٌّ من صلاة الليل، ولكن فُوِّض قدره إلى اختيار المصلّي، وعلى هذا فقد قال قوم: فَرْضُ قيامِ الليل بالقليل باقٍ؛ وهو مذهب الحسن[4]. وقال قوم: نسخ بالكلية، فلا تجب صلاة الليل أصلاً؛ وهو مذهب الشافعي. ولعل الفريضة التي بقيت في حقِّ النبيِّ ﷺ هي هذا، وهو قيامه، ومقداره مفوَّض إلى خِيرتِه.

وإذا ثبت أن القيام ليس فرضاً فقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ معناه: اقرؤوا إن تيسَّر عليكم ذلك، وصلُّوا إن شئتم. وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرَّر في حقِّ النبيِّ ﷺ أيضاً، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه. وقوله: «نَافِلَةً لَّكَ» محمول على

---

(١) في (د) و(خ) و(ي) و(م): ثانياً. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في أحكام القرآن للشافعي ١/ ٥٥، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٠، والكلام منهما.

(٢) في النسخ: أي والمثبت من أحكام القرآن والناسخ.

(٣) في أحكام القرآن ١/ ٥٦، وهو في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٠.

(٤) سلف قوله ص٣٢١ من هذا الجزء.

حقيقة النفل. ومن قال: نسخ المقدار وبقي أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ، فهذا النسخ الثاني وقع ببيان مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨]، وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]، وما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوّع(١).

وقيل: وقع النسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، والخطاب للنبيِّ ﷺ وللأمة، كما أنَّ فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبيُّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ كانت عامة له ولغيره.

وقد قيل: إن فريضة الله امتدت إلى ما بعد الهجرة، ونسخت بالمدينة؛ لقوله تعالى ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإنما فرض القتال بالمدينة؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة، فقيام الليل نُسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]. وقال ابن عباس: لمَّا قدم رسول الله ﷺ نَسَخَ قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ وجوبَ صلاة الليل(٢).

السابعة: قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ الآية؛ بيَّن سبحانه علةَ تخفيف قيام الليل، فإن الخَلْق منهم المريض، ويشقُّ عليهم قيام الليل، ويشقُّ عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك، فخفَّف الله عن الكل لأجل هؤلاء(٣).

---

(١) أخرج البخاري (١٨٩١)، ومسلم (١١) عن طلحة بن عبيد الله أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس، فقال: يا رسول الله، أخبرني ماذا فرض اللهُ عليَّ من الصلاة، فقال: «الصلوات الخمس إلا أن تَطَوَّع شيئاً».

(٢) أخرجه أبو عبيد الهروي في الناسخ والمنسوخ (٤٦٧)، والنحاس في ناسخه (٩٠٨) عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس كما في مراسيل ابن أبي حاتم ص١٣٠.

وأخرجه أبو داود (١٣٠٤)، والبيهقي ٢/ ٥٠٠ بنحوه. وسلف نحوه ص٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٠.

و«أنْ» في «أَنْ سَيَكُونُ» مخففة من الثقيلة، أي: علم أنه سيكون[١].

الثامنة: سَوَّى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المالَ الحلال[٢] للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله[٣].

وروى إبراهيمُ عن علقمة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من جالبٍ يجلب طعاماً من بلد إلى بلد، فيبيعه بسعر يومه، إلا كانت منزلته عند الله منزلةَ الشهداء» ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾[٤].

وقال ابن مسعود: أَيُّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعرِ يومه كان له عند الله منزلة الشهداء، وقرأ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية[٥].

وقال ابن عمر: ما خلق اللهُ موتةً أموتُها بعد الموت في سبيل الله أحبَّ إليَّ من الموت بين شعبتي رَحْلي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض[٦].

وقال طاوس: السَّاعي على الأَرْمَلةِ والمسْكين كالمجاهِدِ في سبيل الله[٧].

وعن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهّز سفينَةَ حِنطة إلى البصرة، وكتب إلى

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩١.

(٢) الكشاف ٤/ ١٧٩.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٩.

(٤) أخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود ﷺ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٨٠، وهو مرسل.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤١١-٤١٢، والكشاف ٤/ ١٧٩، وأخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٢٥٠)، وفي إسناده فرقد السبخي، وهو ضعيف.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩١، والكشاف ٤/ ١٧٩. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٧٩: رواه الثعلبي من رواية القاسم بن عبد الله عن أبيه عن نافع، عن ابن عمر به، وإسناده ضعيف.

(٧) لم نقف عليه من قول طاوس، وأخرجه الإمام أحمد (٨٧٣٢)، والبخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. وتمامه: «كالمجاهد في سبيل الله، أوكالذي يقوم الليل ويصوم النهار».

وَكيله: بعِ الطعامَ يوم تدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غدٍ؛ فوافق سعةً في السعر، فقال التجار للوكيل: إن أخَّرته جمعةً ربحت فيه أضعافَه، فأخره جمعة، فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحبُ الطعام: يا هذا، إنا كنَّا قنعنا بربح يسيرٍ مع سلامة ديننا، وقد جنيتَ علينا جِناية، فإذا أتاك كتابي هذا؛ فخذ المالَ وتصدَّق به على فقراء البصرة، ولَيتني أنجو من الاحتكار كَفافاً؛ لا عليَّ ولا لي.

ويروى أن غلاماً من أهل مكة كان ملازماً للمسجد، فافتقده ابن عمر، فمشى إلى بيته، فقالت أمه: هو على طعام له يبيعه؛ فلقيه فقال له: يا بنيَّ، مالك وللطعام؟ فهلَّا إبلاً، فهلَّا بقراً، فهلَّا غنماً! إن صاحب الطعام يحب المَحْل، وصاحبَ الماشية يحب الغيث.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: صلُّوا ما أمكن؛ فأوجب اللهُ من صلاة الليل ما تيسر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدَّم[1]. قال ابن العربي[2]: وقد قال قوم: إن فرض قيام الليل سُنَّ في ركعتين من هذه الآية؛ قاله البخاريُّ وغيره، وعقد باباً ذكر فيه حديث: «يَعقِد الشيطانُ على قافية رأس أحدِكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ، يضرب على كل عُقْدة مكانها: عليك ليلٌ طويل فارقد. فإن استيقظ فذكر اللهَ انحلت عُقْدة، فإن توضأ انحلت عُقْدة، فإن صلَّى انحلت عُقَده كلُّها، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النفس، وإلا أصبح خبيثَ النفس كسلان»[3] وذكر حديثَ سَمُرة ابن جُنْدُب عن النبيِّ ﷺ في الرؤيا قال: «أما الذي يُثْلَغ رأسُه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفُضه، وينام عن الصلاة المكتوبة»[4]، وحديثَ عبد الله بن مسعود قال: ذُكر عند

---

(١) ص٣٢٠-٣٢١ من هذا الجزء.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٠.

(٣) صحيح البخاري (١١٤٢)، وهو عند الإمام أحمد (٧٣٠٨)، ومسلم (٧٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٢/ ٢٤٣.

(٤) صحيح البخاري (١١٤٣)، وأخرجه الإمام أحمد (٢٠٠٩٤) مطولاً، ومسلم (٢٢٧٥) مختصراً. قوله في الحديث: «يثلغ رأسه، الثلغ: الشدخ، وقيل: هو ضربك الشيء الرطبَ بالشيء اليابس حتى ينشدخ. النهاية: (ثلغ).

النبيِّ ﷺ رجلٌ ينام الليل كلَّه، فقال: «ذلكَ رَجُلٌ بالَ الشيطانُ في أذنيه»[١] فقال ابن العربيّ[٢]: فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلقِ الصلاة على المكتوبة؛ فيحمل المطلق على المقيَّد لاحتماله له، وتسقط الدعوى ممَّن عيَّنه لقيام الليل.

وفي الصحيح واللفظُ للبخاري[٣]: قال عبد الله بن عمرو: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبدَ الله، لا تكنْ مثلَ فلان، كان يقوم الليلَ، فترك قيام الليلِ». ولو كان فرضاً ما أقرَّه النبيُّ ﷺ عليه، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه، بل كان يذمه غاية الذمِّ.

وفي الصحيح[٤] عن عبد الله بن عمر قال: كان الرجل في حياة النبيِّ ﷺ إذا رأى رؤيا قصَّها على النبيِّ ﷺ، وكنت غلاماً شاباً عَزَباً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملَكين أخذاني فذهبَا بي إلى النار، فإذا هي مطويّة كطيِّ البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار. قال: ولقيَنا مَلَكٌ آخر، فقال لي: لم تُرَعْ. فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال: «نِعم الرجل عبد الله لو كان يصلّي من الليل»، فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً؛ فلو كان تَرْك القيام معصية لمَا قال له المَلك: لم تُرَعْ. والله أعلم.

العاشرة: إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرضٍ، وأن قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾؛ ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ محمولٌ على ظاهره من القراءة في الصلاة، فاختلف العلماء في قدْرِ ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة؛ فقال مالكٌ والشافعيُّ: فاتحة الكتاب، لا يجزئ العدول عنها، ولا الاقتصار على بعضها، وقدَّره أبو حنيفة بآية واحدة، من أيِّ القرآن كانت. وعنه ثلاث آيات، لأنها أقلُّ سورة. ذكر القول الأوَّل الماورديُّ[٥]

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٠)، وهو عند الإمام أحمد (٣٥٥٧)، ومسلم (٧٧٤).

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٠-١٨٧١ .

(٣) صحيح البخاري (١١٥٢)، وصحيح مسلم (١١٥٩) (١٨٥).

(٤) صحيح لبخاري (١١٢١)، وصحيح مسلم (٢٤٧٩)، وهو عند الإمام أحمد(٦٣٣٠).

(٥) في النكت والعيون ٦/ ١٣٣ .

والثاني ابنُ العربيّ [١]. والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعيُّ ، على ما بيَّناه في سورة الفاتحة[٢] أوَّلَ الكتاب والحمد لله.

وقيل: إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة، قال الماوردي[٣]: فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولاً على الوجوب، أو على الاستحباب دون الوجوب. وهذا قول الأكثرين، لأنه لو وجب عليه أن يقرأه[٤] لوجب عليه أن يحفظه.

الثاني: أنه محمول على الوجوب، ليقف بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد وبعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائلَ التوحيد منه أن يحفظه، لأن حِفظ القرآن من القُرب المستحبة دون الواجبة.

وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال:

أحدها: جميع القرآن، لأن الله تعالى يسَّره على عبادِه، قاله الضحاك.

الثاني: ثلث القرآن، حكاه جويبر.

الثالث: مئتا آية، قاله السدّيُّ.

الرابع: مئة آية، قاله ابن عباس.

الخامس: ثلاث آيات كأقصر سورة، قاله أبو خالد الكناني.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني المفروضة - وهي الخمس - لوقتها.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة في أموالكم، قاله عكرمة وقتادة. وقال الحارث العُكْلي: صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك. وقيل: صدقة التطوع. وقيل: كل أفعال الخير. وقال ابن عباس: طاعة الله والإخلاص له[٥].

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧١ .

(٢) ١/ ١٩٠-١٩١ .

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٣٣ ، والقول الذي قبله منه.

(٤) في (م) يقرأ.

(٥) المصدر السابق بنحوه.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القَرْضُ الحسن: ما قُصد به وجهُ الله تعالى خالصاً من المال الطَّيِّب. وقد مضى في سورة الحديد[1] بيانه. وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن: النفقةُ على الأهل. وقال عمر بن الخطاب: هو النفقة في سبيل الله[2].

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ تقدَّم في سورة البقرة[3].

وروي عن عمر بن الخطاب أنه اتخذ حَيْساً - يعني تمراً بلبن - فجاءه مسكين، فأخذه ودفعه إليه. فقال بعضهم: ما يدري هذا المسكين ما هذا؟ فقال عمر: لكن ربُّ المسكين، يدري ما هو. فكأنه تأوّلَ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾[4] أي: مما تركتم وخلَّفتم، ومن الشحِّ والتقصير.

﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ قال أبو هريرة: الجنة[5]، ويحتمل أن يكون أعظم أجراً، لإعطائه بالحسنة عشراً. ونصب ﴿خَيْرًا وَأَعْظَمَ﴾ على المفعول الثاني لـ «تَجدوه» و«هو»: فصلٌ عند البصريين، وعمادٌ في قول الكوفيين، لا محل له من الإعراب[6]. و«أجْراً» تمييز.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي: سلوه المغفرةَ لذنوبكم﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما كان قبلَ التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم[7] بعدها، قاله سعيد بن جبير.

ختمت السورة.

---

(١) عند تفسير الآية ١٨ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٣٤ .

(٣) ٢/ ٣١٦ وما بعد.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٤١٩ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٣٤ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤١٢ .

(٧) في النسخ: لكم. والمثبت من النكت والعيون ١٦/ ١٣٤ ، والكلام منه.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مَكِّيَّةٌ[1]، وآيُها تسعَ عشرةَ أو عشرونَ[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أصلُهُ: المُتَزَمِّلُ، مِن تزمَّل بثِيابهِ إذا تلفَّفَ بها، فأُدغمَ التَّاءُ في الزَّايِ، وقد قُرِئَ به[3]، وبـ(المُزَمِّل) مفتوحةَ الميمِ ومَكسورَتَها[4]؛ أي: الذي زمَّله غيرُه أو زمَّلَ نفسَهُ[5]، سُمِّيَ به النبيُّ عليهِ السَّلامُ تهجيناً لِمَا

---

(١) واستثني منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى آخر السُّورة فإنَّها مدنيَّة. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٥٧)، و«تفسير الثعلبي» (٢٧/ ٤٦٧).

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٥٧)، وفيه: وهي ثماني عشرة آية في المدني الأخير، وتسع عشرة في المكي بخلاف عنه وفي البصري، وعشرون في عدد الباقي، وفي المكي من روايتنا.

(٣) كلاهما مع تخفيف الزاي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤) دون نسبة، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٦) عن أبيٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤)، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٥)، عن عكرمة بكسر الميم، وبفتح الميم نسبت في «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٦)، و«البحر» (٢١/ ٧٢)، لبعض السلف.

(٥) قولُه: «الَّذي زمَّلَه غيرُه» هو بيانٌ له على قراءةِ الفتحِ «أو زمَّلَ نفسَه» على قراءةِ الكسر؛ لأنَّ ذكرَ الفاعلِ دونَ المفعولِ يدلُّ على أنَّه حُذِفَ مفعولُه للعلمِ به، أو نُزِّلَ منزلةَ اللازمِ، فلذا لم يُبنَ للمفعولِ. قاله الشهاب.

كانَ عليـه[١]؛ لأنَّـه كانَ نائمًـا أو مُرتَعِـدًا لمَّـا دَهِشَـهُ بَدْءُ الوحـيِ مُتزَمِّلًا فـي قطيفةٍ.

أو تحسينًا له، إذ رُوِيَ أنَّه كان يُصلِّي مُتلفِّفًا بمِرْطٍ مَفروشٍ على عائشةَ فنزلَ[٢].

أو تشبيهًا له في تَثاقُلِه بالمُتزمِّلِ[٣]؛ لأنَّه لم يَتمرَّنْ بعدُ في قيامِ الليلِ.

أو مِن تزمَّلَ الزِّمْلَ: إذا تحمَّلَ الحِمْلَ؛ أي: الذي تحمَّلَ أعباءَ النبوَّةِ.

(٢) ـ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: قُمْ إلى الصَّلاةِ، أو: داوِمْ عليها، وقُرِئَ بضمِّ الميمِ وفتحِها[٤] للإتباعِ أو التَّخفيفِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

---

(١) قولُـه: «تهجينًـا لِـما كانَ عليـه...» قـال الشـهاب: «التَّهجيـنُ: التَّقبيـحُ، وقد تبـعَ في هـذه العبارةِ الزَّمخشـريَّ، وشـنَّعَ عليـه صاحـبُ «الانتِصـافِ» فيهـا، وقـالَ: إنَّ فيه سـوءَ أدبٍ، وهو كمـا قالَ». قلـت: بـل إن العلمـاء جعلـوا نـداءَه بالمزَّمِّل وغيرَ ذلـك من صفاته تشـريفاً له ﷺ. وقال الشـهاب أيضـاً: «والحـقُّ مـا قالَـه السُّـهَيليُّ: أنَّـه تأنيـسٌ لـه ومُلاطَفـةٌ، على عـادةِ العربِ في اشـتقاقِ اسـمٍ للمُخاطـبِ مـن صفتِـه الَّتـي هـو عليهـا، كقولِـه عليـه السَّـلامُ لعليٍّ: «قُـمْ يـا أبـا تُـرابٍ»؛ قصـدًا لرفـعِ الحجـابِ، وطـيِّ بسـاطِ العتابِ، وتنشـيطًا لـه، ليتلَقَّى ما يـردُ عليه بـلا كسَـلٍ، وكلُّ ما يفعلُ المحبـوبُ محبوبٌ».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠) عن عائشة رضي الله عنها. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ١٠٧): «غريب». وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٧٨): «لم أره هكذا». ورده عدد من المفسرين بأن السورة مكية، وأن ذلك كان في بيت خديجة رضي الله عنها كما هو مشهور ومعلوم. وانظر: «الانتصاف» لابن المنير (٤/ ٦٣٤).

(٣) قولُه: «أو تشبيهًا له في تثاقُلِه...» قال الشهاب: يعني: أنَّه استعارةٌ، فشُبِّه عدَمُ التَّمرُّنِ فيما ذكرَ بالنَّومِ على فراشٍ مُغطًّى، ووجهُ الشَّبه تعطُّلُ الأمورِ أو التَّثاقُلُ فيها...، والأحسَنُ تركُه لِـمَا فيه من سوءِ الأدبِ كالوجهِ الأوَّلِ مع مُخالفتِه للقواعدِ أيضًا.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤)، و«المحتسب» (٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦)، بضم الميم عن أبي السمال، وبفتحها دون نسبة.

(٣ ـ ٤) ـ ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ الاستثناءُ مِن ﴿ٱلَّيْلَ﴾، و﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدلٌ من ﴿قَلِيلًا﴾، وقلَّتُه بالنِّسبَةِ إلى الكلِّ، والتَّخييرُ: بين قيامِ النِّصفِ والزَّائدِ عليه كالثُّلثَيْنِ، والنَّاقصِ عنه كالثُّلُثِ.

أو ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلَّيْلَ﴾ والاستثناءُ منه، والضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾ للأقلِّ مِن النِّصفِ كالثُّلُثِ، فيكونُ التَّخييرُ بينَهُ وبينَ الأقَلِّ منه كالرُّبعِ، والأكثرِ منه كالنِّصفِ. أو للنِّصفِ[1] والتَّخييرُ بينَ أَنْ يقومَ أقلَّ منه على البَتِّ، وأن يختارَ أحدَ الأمرينِ مِن الأقلِّ والأكثرِ.

أو الاستثناءُ مِن أعدادِ الليلِ فإنَّه عامٌّ، والتَّخييرُ: بينَ قيامِ النِّصفِ والنَّاقصِ عنه والزَّائدِ عليه.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾: اقرَأْهُ على تُؤَدَةٍ وتبيينِ حروفٍ بحيثُ يتمكَّنُ السَّامعُ مِن عدِّها، مِن قولِهم: ثَغْرٌ رَتِلٌ ورَتْلٌ: إذا كانَ مفلَّجًا.

(٥) ـ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني: القرآنَ؛ فإنَّه لِمَا فيهِ مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ ثَقيلٌ على المكلَّفينَ سِيَّمَا على الرَّسولِ؛ إذ كانَ عليه أن يتحمَّلَها ويُحَمِّلَها أمَّتَه، والجملةُ اعتراضٌ بتسهيل التكليفِ عليه بالتَّهجُّدِ، دالٌّ على أنَّه مُشِقٌّ مُضادٌّ للطَّبعِ مُخالفٌ للنَّفسِ.

أو: رصينٌ[2]؛ لرَزانةِ لفظِهِ ومَتانةِ مَعناه.

أو: ثقيلٌ على المتأمِّلِ فيه لافتقارِه إلى مزيدِ تَصفيةٍ للسرِّ وتجريدٍ للنَّظرِ.

أو: ثقيلٌ في الميزانِ.

---

(١) قوله: «أو للنصف» عطف على (للأقل).

(٢) قوله: «أو رصين» هو مع ما بعده عطف على «ثقيل على المكلفين».

أو: ثقيلٌ على الكفَّارِ والفُجَّارِ.

أو: ثقيلٌ تَلقِّيهِ؛ لقولِ عائشةَ رضي الله عنها: رأيتُهُ ينزلُ عليه الوَحيُ في اليومِ الشَّديدِ البَردِ فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَهُ ليَرْفَضُّ عرقًا[١]. وعلى هذا يجوزُ أن يكونَ صفةً للمَصدرِ.

والجملةُ على هذه الأوجُهِ[٢] للتَّعليلِ مُستأنَفةٌ[٣]، فإنَّ التَّهجُّدَ يُعِدُّ للنَّفسِ ما به تُعالَجُ ثقلَهُ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: إنَّ النَّفسَ التي تنشأُ مِن مَضجَعِها إلى العبادَةِ، مِن نَشَأَ مِن مَكانِه: إذا نهضَ، قال:

نَشَأْنَا إلى خُوْصٍ بَرَى نَيَّهَا السُّرَى وَأَلْصَقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ القَمَاحِدِ[٤]

أو: قيامَ الليلِ، على أنَّ الـ﴿نَاشِئَةَ﴾ له.

أو: العبادةَ التي تنشأُ بالليلِ؛ أي: تحدثُ.

---

(١) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣). قوله: «فَيَفصِم»؛ أي: يُقلع، ومعناهُ: يُفارِقُه. و«ارفضَّ عرقاً»؛ أي: جرى عرقه وسال.

(٢) عدا الوجه الأول فإن الجملة عليه اعتراض كما ذكر المصنف نفسه.

(٣) «مستأنفة» من نسخة الخيالي، وفي باقي النسخ: «مستأنف». وهكذا وقعت في نسخ الشهاب لذلك قال: وكانَ الظّاهرُ أن يقولَ: «مُستأنَفةٌ».

(٤) ذكره في «الكشاف» (٩/ ٣٣٨)، ثم متابعوه المصنف وأبو حيان والسمين والآلوسي عند هذه الآية من تفاسيرهم.

قال الشهاب: لا أعرف صاحبه، وقوله: «نشأنا» بمعنى: قمنا ونهضنا، و«خوص»: جمع خوصاء وهي الناقة الغائرة العينين من الهزال. و«برى» بمعنى: أذهب، مستعار من بري العود والقلم. و«ألصق» بمعنى: نكس وخفض، و«نَيَّها» بفتح النون بمعنى: شحمها، والمشرفات: العالية، و«القماحد»: جمع قَمَحْدُوة وهي ما خلف الرأس، يقول: قمنا إلى نياق هزلت من كثرة السير.

أو: ساعاتِ الليلِ؛ لأنَّها تحدثُ واحدةً بعد أخرى.

أو: ساعاتِها الأُوَلَ، مِن نشَأَتْ إذا ابتدأَتْ.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾؛ أي: كلفةً، أو ثباتَ قدمٍ.

وقرأَ أبو عمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿وِطَاءً﴾[1]؛ أي: مُواطأةَ القلبِ اللسانَ لها أو فيها[2]، أو موافَقةً لِمَا يرادُ مِن الخضوعِ والإخلاصِ.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: وأَسَدُّ مَقالًا، أو: وأثبتُ قراءةً لحُضورِ القلبِ وهدوءِ الأَصواتِ.

(٧) ـ ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾: تَقلُّبًا في مهامِّكَ واشتِغالًا بها، فعليكَ بالتَّهجُّدِ فإنَّ مُناجاةَ الحقِّ تَستَدعِي فراغًا.

وقُرِئَ: (سبخًا)[3]؛ أي: تفرُّقَ قلبٍ بالشَّواغلِ، مستعارٌ مِن سَبْخِ الصُّوفِ وهو نَفْشُهُ ونشرُ أجزائِه.

(٨) ـ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: ودُمْ على ذكرِه ليلًا ونهارًا، وذكرُ اللهِ يَتناوَلُ كلَّ ما يذكرُهُ مِن تَسبيحٍ وتهليلٍ وتحميدٍ وصَلاةٍ وقراءةِ قُرآنٍ ودِراسَةِ علمٍ.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: وانقطِعْ إليه بالعبادةِ، وجَرِّدْ نفسكَ عمَّا سِواهُ، ولهذه الرَّمْزةِ ومراعاةِ الفواصلِ وضعَهُ موضِعَ: تبتُّلًا.

(٩) ـ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ خبرُ مَحذوفٍ، أو مُبتدأٌ خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٢) قولُه: «لها أو فيها» قال الشهاب: الأوَّلُ على أنَّ المُرادَ بالنَّاشئةِ النَّفسُ؛ أي: أشدُّ وَطأً لمُواطأةِ القلبِ اللِّسانَ، وقولُه: «فيها» على أنَّ المُرادَ بالنَّاشئةِ القيامُ أو العبادةُ أو السَّاعاتُ؛ أي: أشدُّ وطأً لمُواطأةِ قلبِ القائمِ فيها لسانَه، والإسنادُ على هذا مجازيٌّ.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥) عن يحيى بن يعمر.

وقرأ ابنُ عامرٍ والكوفيُّونَ غيرَ حَفصٍ ويعقوبَ بالجرِّ[1] على البدلِ مِن ﴿رَبِّكَ﴾، وقيل: بإضمارِ حرفِ القَسَمِ، وجوابُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ مُسبَّبٌ عَن التَّهليلِ، فإنَّ توحُّدَه بالألوهيَّةِ يَقتَضِي أن تُوْكَلَ إليه الأمورَ.

(١٠) - ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِن الخُرافاتِ ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأَنْ تُجانِبَهُم وتُدارِيَهُم[2] ولا تكافِئَهُم، وتَكِلَ أمرَهُم إلى اللهِ كما قال:

(١١) - ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: دَعْني وإيَّاهُم وكِلْ إليَّ أمرَهُم، فإنَّ فيَّ غُنيةً عنكَ في مُجازاتِهم.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾: أربابَ التَّنعُّمِ، يريدُ صناديدَ قريشٍ.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾: زمانًا - أو: إمهالًا - قليلا.

(١٢) - ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ تعليلٌ للأمرِ، والنِّكْلُ: القيدُ الثَّقيلُ.

(١٣) - ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: طعامًا يَنْشبُ[3] في الحلقِ كالضَّريعِ والزَّقُّومِ.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾: ونوعًا آخرَ مِن العذابِ مُؤلِمًا لا يَعرفُ كُنْهَهُ إلا اللهُ.

ولَمَّا كانت العُقوباتُ الأربَعُ ممَّا تَشتَرِكُ فيها الأشباحُ والأرواحُ، فإنَّ النُّفوسَ العاصِيَةَ المُنهمِكَةَ في الشَّهواتِ تبقَى مُقيَّدَةً بحبِّها والتَّعلُّقِ بها عن التَّخلُّصِ إلى عالَمِ المجرَّداتِ، متحرِّقةً بحُرقةِ الفُرقةِ، متجرعةً غصَّةَ الهجرانِ، معذَّبةً بالحرمانِ عَن تجلِّي أنوارِ القدسِ= فسَّرَ العذابَ بالحرمانِ عن لقاءِ اللهِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٦)، و«النشر» (٢/ ٣٩٣).

(٢) في نسخة الخيالي: «وتدارئهم».

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «يتشبث».

(١٤) ـ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾: تضطربُ وتَتزلزَلُ، ظَرفٌ لِمَا في ﴿لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ مِن معنى الفعلِ ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا﴾: رَمْلًا مجتمعًا؛ كأنَّه فعيلٌ بمَعنى مفعولٍ مِن كَثَبْتُ الشَّيءَ: إذا جَمَعْتَه.

﴿مَّهِيلًا﴾: منثورًا، من هِيلَ هَيْلًا: إذا نُثِرَ.

(١٥) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهلَ مكَّةَ ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: يشهدُ عليكم يومَ القِيامَةِ بالإجابةِ والامتناعِ ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني: موسى، ولم يعيِّنْه لأنَّ المقصودَ لَمْ يَتعلَّقْ به.

(١٦) ـ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ عرَّفَهُ لسَبْقِ ذكرِهِ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾: ثقيلًا، مِن قولِهم: طَعامٌ وَبيلٌ: لا يُستَمرَأُ لثقلِه، ومنه: الوابلُ، للمطرِ العظيمِ.

(١٧) ـ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفسَكُم[1] ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾: بقيتُمْ على الكفرِ ﴿يَوْمًا﴾: عذابَ يومٍ ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ مِن شدَّةِ هولِه، وهذا على الفَرْضِ أو التَّمثيلِ، وأصلهُ: أنَّ الهُمومَ تُضعِفُ القُوَى وتُسرِعُ بالشَّيبِ.

ويجوزُ أن يكونَ وَصْفَ اليومِ بالطُّولِ.

(١٨) ـ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾: منشقٌّ، والتَّذكيرُ على تأويلِ السَّقفِ أو إضمارِ: شيءٌ.

﴿بِهِۦ﴾: بشدَّةِ ذلك اليومِ على عظمِها وإحكامِها فضلًا عن غيرِها، والباءُ للآلةِ.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ الضَّميرُ للهِ عزَّ وجلَّ، أو لليومِ على إضافةِ المصدَرِ إلى المفعولِ.

---

(١) «﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم» بيانٌ للمعنى، لا للإعراب من أن (أنفسكم) مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأن مفعوله مذكور، وهو قوله: ﴿يَوْمًا﴾، و﴿تَتَّقُونَ﴾ لا يتعدَّى إلى مفعولين، بخلاف (وقى)، قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[الدخان: ٥٦]. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤١٠).

(١٩) ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: الآياتِ المُوْعِدةَ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾: عِظَةٌ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يتَّعِظَ ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: تقرَّبَ إليه بسُلوكِ التَّقوَى.

(٢٠) ـ ﴿إنَّ ربَّكَ يعلَمُ أنَّكَ تقومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَي اللَّيلِ ونِصْفِهِ وثُلُثِه﴾ استعارَ الأدنى للأقَلِّ؛ لأنَّ الأقربَ إلى الشَّيءِ أقلُّ بعدًا منه.

وقرأَ هشام: ﴿ثُلْثَي الليل﴾، وابنُ كثيرٍ والكوفيُّونَ: ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾[١] بالنَّصبِ عطفًا على أَدْنى.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾: ويقومُ ذلك جماعةٌ مِن أَصحابِكَ.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ لا يعلَمُ مَقاديرَ ساعاتِهما كمَا هيَ إلَّا اللهُ، فإنَّ تقديمَ اسمِهِ مُبتدأً مبنيًّا عليه ﴿يُقَدِّرُ﴾ يُشعِرُ بالاختصاصِ، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أي: لن تُحْصُوا تقديرَ الأَوقاتِ، ولن تَستَطِيعُوا ضبطَ السَّاعاتِ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالتَّرخيصِ في تركِ القيامِ المقدَّرِ ورفعِ التَّبِعَةِ فيه.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: فصلُّوا ما تيسَّرَ علَيْكُم مِن صَلاةِ الليلِ، عبَّرَ عَن الصَّلاة بالقراءةِ كما عبَّرَ عنها بسائرِ أَركانِها؛ قيل: كانَ التَّهجُّدُ واجِبًا على التَّخييرِ المذكورِ فعَسُرَ عليهِم القيامُ به فنُسِخَ بهِ ثمَّ نُسِخَ هذا بالصَّلواتِ الخَمْسِ.

أو: فاقرَؤُوا القرآنَ بعينِه كيفَما تيسَّرَ عليكُم.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئنافٌ يبيِّنُ حكمةً أخرى مُقتضيةً للتَّرخيصِ والتَّخفيفِ، ولذلك كرَّرَ الحكمَ مُرتَّبًا عليه، وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ والضَّربُ في الأرضِ ابتغاءً للفَضلِ: المسافرةُ للتِّجارةِ وتَحصيلِ[٢] العلمِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٨)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٢) في نسخة الخيالي: «أو تحصيل».

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبةَ ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ يريدُ به: الأمرَ بسائرِ الإنفاقاتِ في سُبلِ الخيرِ، أو بأداءِ الزَّكاةِ على أحسَنِ وَجهٍ، والتَّرغيبَ فيه بوعدِ العِوَضِ كما صرَّحَ به في قولِه:

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾: من أجرٍ ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ مِن الذي تُؤخِّرُونَه إلى الوصيَّةِ عندَ الموتِ، أو: مِن مَتاعِ الدُّنيا، و﴿خَيۡرٗا﴾ ثاني مَفعولي ﴿تَجِدُوهُ﴾ و﴿هُوَ﴾ تأكيدٌ أَوْ فَصلٌ؛ لأنَّ (أَفْعَلَ مِن) كالمعرِفَةِ، ولذلك يَمتنِعُ مِن حرفِ التَّعريفِ.

وقُرِئَ: (هو خيرٌ)[1] على الابتداءِ والخبرِ.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ في مجامعِ أَحوالِكُم فإنَّ الإنسانَ لا يخلو مِن تَفريطٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾.

عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ المُزَّمِّلِ رفعَ اللهُ عنهُ العُسرَ في الدُّنيَا والآخرةِ»[2].

* * *

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٤) عن أبي السمال.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٤٦٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٧١)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٧٣) سورة المزمل مكية وآياتها عشرون

عن جابر رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً يصد الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمَّل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿ يا أيها المزمل ﴾، ﴿ يا أيها المدثر ﴾[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو التغطي، وينهض إلى القيام لربه عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾، فقال تعالى: ﴿ يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً ﴾، قال ابن عباس ﴿ يا أيها المزمل ﴾ يعني يا أيها النائم، وقال قتادة: المزمل في ثيابه، وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو متزمل بقطيفة، وقوله تعالى: ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل ﴿ أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة، أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك، وقوله تعالى: ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أي اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة: كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها، وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن

---

(١) أخرجه الحافظ البزار.

قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم[١]، وعن أمّ سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ۞ الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين﴾[٢]، وفي الحديث: «يقال لقاريء القرآن: اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٣]. وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل، وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم» و «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». وقال ابن مسعود: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة[٤]، وقوله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ قال الحسن وقتادة: أي العمل به، وقيل: ثقيل وقت نزوله من عظمته، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أُنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[٥]. وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها[٦].

وقوله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً﴾ قال عمر: الليل كله ناشئة، وقال مجاهد: نشأ إذا قام من الليل، وفي رواية عنه: بعد العشاء، والغرض أن ﴿ناشئة الليل﴾ هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿هي أشد وطأ وأقوم قيلاً﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش، ، ولهذا قال تعالى: ﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾، قال أبو العالية ومجاهد: فراغاً طويلاً، وقال قتادة: فراغاً وبغية ومتقلباً، وقال السدي: ﴿سبحاً طويلاً﴾ تطوعاً كثيراً، وقال عبد الرحمن ابن زيد ﴿سبحاً طويلاً﴾ قال: لحوائجك فأفرغ لدينك الليل، وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله تبارك وتعالى منَّ على عباده فخففها، ووضعها. روى الإمام أحمد، عن زرارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام قال، فلت: يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿يا أيها المزمل﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض

(١) أخرجه البخاري .
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي .
(٣) أخرجه أحمد ورواه الترمذي والنسائي .
(٤) رواه البغوي عن ابن مسعود موقوفاً .
(٥) أخرجه البخاري في أول صحيحه .
(٦) الجران : باطن العنق .

قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هـذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة[1].

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب وكان بهم رحيماً فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل فقال: «أيها الناس أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه» ونزل القرآن: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل.

وقال ابن جرير: لما نزلت ﴿يا أيها المزمل﴾ قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت: ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ قال: فاستراح الناس. وقوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ أي أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، كما قال تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ إي إذا فرغت من أشغالك فانصب في طاعته، وعبادته لتكون فارغ البال، ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ أي أخلص له العبادة، وقال الحسن: اجتهد وابتل إليه نفسك، وقال ابن جرير: يقال للعـابد متبتل، ومنه الحديث المروي (نهى عن التبتل) يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج، وقوله تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا آله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلاً، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، وكقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر، على ما يقوله سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه، ثم قال له متهدداً لكفار قومه: ﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة﴾ أي والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، ﴿ومهلهم قليلاً﴾ أي رويداً، كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿إن لدينا أنكالاً﴾ وهي القيود، قاله ابن عباس وعكرمة والسدي وغير واحد، ﴿وجحيماً﴾ وهي السعير المضطرمة، ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، ﴿وعذاباً أليماً * يوم ترجف الأرض

(١) أخرجه الإمام أحمد، وهو جزء من حديث طويل، وقد رواه مسلم في صحيحه بنحوه.

والجبال﴾ أي تزلزل، ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ أي تصير ككثبان الرمال بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض ﴿قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً﴾ أي وادياً ﴿ولا أمتاً﴾ أي رابية، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع، ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش والمراد سائر الناس: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾ أي بأعمالكم، ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذًا وبيلًا﴾، قال ابن عباس ﴿أخذًا وبيلًا﴾ أي شديداً، فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾، وقوله تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ أي فكيف تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به؟ وكيف يحصل لكم أمان من يوم هـذا الفزع العظيم إن كفرتم؟ ومعنى قوله: ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار، فيقول: من كم؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، وقوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ قال الحسن وقتادة: أي بسببه من شدته وهوله، وقوله تعالى: ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً، أي واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: ﴿إنَّ هذِهِ﴾ أي السورة ﴿تذكرة﴾ أي يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي ممن شاء الله تعالى هدايته، ثم قـال تعالى: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفـة من الذين معك﴾ أي تارة هكذا وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم بـه من قيـام الليل، لأنه يشق عليكم، ولهذا قال: ﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾ أي تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، ﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ أي من غير تحديد بوقت، أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قـال: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك ﴿ولا تخافت بها﴾، وقـد استدل أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية وهي قوله: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ على أنه لا يجب تعين قراءة الفاتحة في الصلاة، واعتضد

بحديث المسيء صلاته : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن »[1] ، وقد أجاب الجمهور بحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[2] . وعن أبي هريرة مرفوعاً: « لا تجزيء صلاة من لم يقرأ بأُمّ القرآن »[3] . وقوله تعالى: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار، من مرضى لا يستطيعون القيام ومسافرين يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بالغزو في سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه، روى ابن جرير، عن أبي رجاء قال، قلت للحسن: يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة ؟ قال: يتوسد القرآن لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبد الصالح: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾، ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا أباؤكم﴾، قلت: يا أبا سعيد قال الله تعالى ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾، قال: نعم، ولو خمس آيات، وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري، أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن، أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح ؟ فقال: « ذاك رجُل بال الشيطان في أُذنه » فقيل معناه نام عن المكتوبة، وقيل عن قيام الليل .

وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة والله أعلم، وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: « خمس صلوات في اليوم والليلة »، قال: هل عليّ غيرها ؟ قال: « لا ، إلا أن تطوّع » ، وقوله تعالى: ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ يعني من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره كما قال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾، وقوله تعالى: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا، عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا: يا رسول الله، مامنا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: « اعلموا ما تقولون »، قالوا: ما نعلم إلا ذلك يارسول الله، قال: « إنما مال أحدكم ما قدّم، ومال وارثه ما أخر »[4]، ثم قال تعالى: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها، فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

[آخر سورة المزمل ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) جزء من حديث مشهور رواه الشيخان .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه .

(٤) أخرجه الحافظ الموصلي ، ورواه البخاري والنسائي بنحوه .

تفسير سورة المـزمل

وهى مكية .

قال الحافظ أبو بكر [أحمد] (١) بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا محمد بن موسى القطان الواسطى ، حدثنا معلى بن عبد الرحمن ، حدثنا شريك ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً تصدر (٢) الناس عنه . فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . فتفرق المشركون على ذلك ، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها. فأتاه جبريل ، عليه السلام ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

ثم قال البزار : معلى بن عبد الرحمن : قد حدث عنه جماعة من أهل العلم ، واحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) ﴾ .

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو : التغطى فى الليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦] . وكذلك كان رسول الله ﷺ ممتثلا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] . وهاهنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

قال ابن عباس ، والضحاك ، والسدى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ يعنى : يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل فى ثيابه ، وقال إبراهيم النَّخعىّ : نَزَلت وهو مُتَزَمل بقطيفة .

وقال شبيب بن بِشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قال : يا محمد ،

---

(١) زيادة من م ، أ . (٢) فى أ : « فصدوا » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٧٦) « كشف الأستار » ، ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤٠٨) من طريق محمد بن موسى القطان به مثله ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٠) : « وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطى وهو كذاب » .

زُمِّلتَ القرآن .

وقوله : ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ : بدل من الليل ، ﴿ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أى: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لا حرج عليك فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ أى: اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتلها ، حتى تكون أطول من أطول منها . وفى صحيح البخارى، عن أنس: أنه سُئِل عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقال: كانت مداً ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، يمد بسم الله ،ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم (١).

وقال ابن جُرَيج ، عن ابن أبى مُلَيكة عن أم سلمة : أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقالت : كان يقطّع قراءته آية آية، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « يقال لصاحب (٣) القرآن : اقرأ وارْقَ ، ورتِّل كما كنت تُرتِّل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

ورواه أبو داود ، والترمذى والنسائى ، من حديث سفيان الثورى ، به (٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقد قدمنا فى أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة ، كما جاء فى الحديث : « زيِّنوا القرآن بأصواتكم » ، و « ليس منا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن » ، و « لقد أوتى هذا مزمار من مزامير آل داود » يعنى : أبا موسى ، فقال أبو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحبَّرْته لك تحبيرا (٥) .

وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الرمل (٦) ، ولا تهذّوه هَذَّ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هَمّ أحدكم آخر السورة . رواه البغوى (٧) .

وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مرة : سمعت أبا وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل (٨) الليلة فى ركعة . فقال : هذّا كهذّ الشعر . لقد عرفت

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٦) .

(٢) المسند (٦/ ٣٠٢) ، وسنن أبى داود برقم (٤٠٠١) ، والشمائل للترمذى برقم (٢٩٩) .

(٣) فى م : « لقارئ » .

(٤) المسند (٢/ ١٩٢) وسنن أبى داود برقم (١٤٦٤) ، وسنن الترمذى برقم (٢٩١٤) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٥٦) .

(٥) انظر هذه الأحاديث فى : فضائل القرآن فى المقدمة .

(٦) فى أ :« الدقل » .

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٢١٥) .

(٨) فى أ : « المعضل » .

النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن . فذكر عشرين سورة من المُفَصّل، سورتين فى ركعة [١] .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ ، قال الحسن ، وقتادة : أى العمل به .

وقيل : ثقيلٌ وقت نزوله ؛ من عظمته . كما قال زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله ﷺ وفَخذُه على فخذى ، فكادت تُرض فَخذى [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبى حَبيب ، عن عَمرو بن الوليد ، عن عبد الله بن عمرو قال : سألتُ النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسمعُ صَلاصِيلَ ، ثم أسكتُ عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تفيض » ، تفرد به أحمد [٣] .

وفى أول صحيح البخارى عن عبد الله بن يوسف ، عن مالك ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عَلَىّ ، فَيَفْصِمُ عنى وقد وَعَيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى ﷺ فى اليوم الشديد البرد ، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . هذا لفظه [٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، أخبرنا عبد الرحمن ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه، عن عائشة قالت : إن كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته ، فتضرب بِجرَانها [٥].

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ؛ أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته ، وضعت جرانها ، فما تستطيع أن تحرك حتى يُسَرّى عنه [٦] .

وهذا مرسل . الجران : هو باطن العنق .

واختار ابن جرير أنه ثقيل [٧] من الوجهين معا ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين .

وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ، قال أبو إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : نشأ : قام بالحبشة .

وقال عمر ، وابن عباس ، وابن الزبير : الليل كله ناشئة . وكذا قال مجاهد ، وغير واحد ،

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٧٥) .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٥٩٢) .

(٣) المسند (٢/ ٢٢٢) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢) .

(٥) المسند (٦/ ١١٨) .

(٦) تفسير الطبرى (٢٩/ ٨٢) .

(٧) فى أ : « أنه يقبل » .

يقال : نشأ : إذا قام من الليل . وفى رواية عن مجاهد : بعد العشاء . وكذا قال أبو مِجْلَز ، وقتادة، وسالم وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر .

والغرض أن ناشئة الليل هى : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهى الآنات . والمقصود أن قيام الليل هو (١) أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ؛ ولهذا قال : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ؛ لأنه وقتُ انتشار الناس ولَغَط الأصوات وأوقات المعاش .

و [قد] (٢) قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش ، أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : « إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا » فقال له رجل : إنما نقرؤها ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾، فقال له : إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد (٣) .

ولهذا قال : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ . قال ابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى مُسلم : الفراغ والنوم .

وقال أبو العالية ، ومجاهد ، وأبو مالك ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وسفيان الثورى : فراغاً طويلا .

وقال قتادة : فراغا وبغية ومُنْقَلبا .

وقال السدى : ﴿ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ : تطوعا كثيراً .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ [إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ] (٤) سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ قال : لحوائجك ، فَأفْرغ لدينك الليل . قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله مَنَّ على العباد فخففها ووضعها ، وقرأ : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾، حتى بلغ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [الليل نصفه أو ثلثه . ثم جاء أمر أوسع وأفسح وضع الفريضة عنه وعن أمته] (٥) فقال : وقال : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] . وهذا الذى قاله كما قاله .

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال: حدثنا يحيى ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها ويجعله فى الكُرَاع والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت. فلقى رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أليس لكم فىّ أسوة(٦) ؟»

---

(١) فى م : « هى » . (٢) زيادة من م .

(٣) مسند أبى يعلى (٧/٨٨) ونقل المحقق فى الحاشية عن أبى بكر بن الأنبارى أنه قال : « حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم ، لأنه مبنى على رواية الأعمش عن أنس ، فهو مقطوع ليس بمتصل ، فيؤخذ من قبل أن الأعمش رأى أنساً ولم يسمع منه » .

(٤) زيادة من أ .

(٥) زيادة من تفسير الطبرى .

(٦) فى أ : « أسوة حسنة » .

فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رَجعتها ، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم. قال : ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إلىّ فأخبرنى بردّها عليك . قال : فأتيت على حكيم بن أفلحَ فاستلحقتُه إليها ، فقال : ما أنا بقاربها ؛ إنى نهيتها أن تقول فى هاتين الشّيعَتَين شيئا ، فأبت فيهما إلا مُضياً . فأقسمتُ عليه ، فجاء معى ، فدخلنا عليها فقالت : حكيم ؟ وعرفته ، قال : نعم . قالت : من هذا معك ؟ قال : سعد ابن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامر. قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى [١] . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن . فهمَمتُ أن أقوم ، ثم بدا لى قيامُ رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : ألست تقرأ هذه السورة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ** ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة، فقام رسولُ الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهَممت[٢] أن أقوم ، ثم بدا لى وتر رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطَهُوره ، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلى ثمانى ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه ويدعو [ويستغفر ثم ينهض ولا يسلم . ثم يصلى التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو] [٣] ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم . فتلك إحدى عشر ركعة يا بنى . فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم ، أوتر بسبع ، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك تسع يا بنى . وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان [٤] إذا شغَله عن قيام الليل نوم أو وَجَع أو مرض ، صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ، ولا أعلم نبى الله ﷺ قرأ القرآن كله فى ليلة ، ولا قام ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان .

فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها ، فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهنى مشافهة .

هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه .وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ،من حديث قتادة ، بنحوه [٥] .

طريق أخرى عن عائشة فى هذا المعنى : قال ابن جرير : حدثنا وكِيع ، حدثنا زيد بن الحُبَاب ـ وحدثنا ابن حميد ، حدثنا مهْران قالا جميعا ، واللفظ لابن وكيع : عن موسى بن عُبيدة ، حدثنى محمد بن طَحْلاء ، عن أبى سلمة ، عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيرا يُصَلى عليه من الليل ، فتسامع الناس به فاجتمعوا ، فخرج كالمُغضب ــ وكان بهم رحيما ، فخشى أن يكتب

---

(١) فى أ : « نعم » . (٢) فى م :« ثم هممت » .
(٣) زيادة من المسند .
(٤) فى أ : « وكان رسول الله ﷺ » .
(٥) المسند (٦/ ٥٤) ، وصحيح مسلم برقم (٧٤٦) .

عليهم قيام الليل ــ فقال : « أيها الناس ، اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يَمَلّ من الثواب حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال ما ديمَ عليه » . ونزل القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ ، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق ، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه ، فرحمهم فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل [١] .

ورواه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف . والحديث فى الصحيح[٢] بدون زيادة نزول هذه السورة ، وهذا السياق قد يُوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك، وإنما هى مكية . وقوله فى هذا السياق : إن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر ــ غريب ؛ فقد تقدم فى رواية أحمد أنه كان بينهما سنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مِسْعَر ، عن سِماك الحنفى ، سمعت ابن عباس يقول : أول ما نزل: أول المزمل ، كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان ، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة .

وهكذا رواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن أبى أسامة ، به [٣] .

وقال الثورى ومحمد بن بشر العَبدى ، كلاهما عن مسعر ، عن سماك ، عن ابن عباس : كان بينهما سنة . وروى ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن وكيع ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن قيس بن وهب ، عن أبى عبد الرحمن قال : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، قاموا حولا حتى وَرِمت أقدامهم وسُوقُهم ، حتى نزلت : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ،قال : فاستراح الناس [٤] .

وكذا قال الحسن البصرى .

وقال ابن أبى حاتم : [حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا عُبَيد الله بن عمر القواريرى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبى] [٥] ، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام قال : فقلت ــ يعنى لعائشة ــ : أخبرينا عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : ألست تقرأ :﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت : بلى. قالت : فإنها كانت قيام رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى انتفخت أقدامهم ، وحُبس آخرها فى السماء ستة عشر شهراً ، ثم نزل .

وقال مَعْمَر ، عن قتادة :﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ : قاموا حولا أو حولين ، حتى انتفخت سُوقهم

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ٧٩) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤٦٥) ،وصحيح مسلم برقم (٧٨٢) .

(٣) تفسير الطبرى (٢٩/ ٧٨) .

(٤) تفسير الطبرى (٢٩/ ٧٩) .

(٥) زيادة من م ، أ .

وأقدامهم فأنزل الله تخفيفها بعد فى آخر السورة .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُميد ، حدثنا يعقوب القمى [١]، عن جعفر ، عن سعيد ـ هو ابن جبير ـ قال : لما أنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قال : مكث النبى ﷺ على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل ، كما أمره ، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾، إلى قوله : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ،فخفف الله تعالى عنهم بعد عشر سنين [٢] .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن عمرو بن رافع ، عن يعقوب القمى [٣] ، به .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا [أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا] [٤] ،فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف الله عنهم ورحمهم ، فأنزل بعد هذا : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾، إلى قوله: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ،فوسع الله ـ وله الحمد ـ ولم يضيق .

وقوله : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أى : أكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك ، وما تحتاج إليه من أمور دنياك ،كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧] أى : إذا فرغت من مهامك فانصب فى طاعته وعبادَته ، لتكون فارغَ البال . قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه .

قال ابن عباس ومجاهد ، وأبو صالح ، وعطية ، والضحاك ، والسدى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أى : أخلص له العبادة .

وقال الحسن : اجتهد وبتّل إليه نفسك .

وقال ابن جرير : يقال للعابد : متبتل ، ومنه الحديث المروى : أنه نهى عن التَّبَتُّل ، يعنى : الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج [٥] .

وقوله : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أى: هو المالك المتصرف فى المشارق والمغارب الذى لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ، ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣] ، وكقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وآيات [٦] كثيرة فى هذا المعنى ، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله ، وتخصيصه بالتوكل عليه .

---

(١) فى أ : « العمى » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٩/ ٧٩) وهو مرسل .
(٣) فى أ : « العمى » .
(٤) زيادة من م ، أ .
(٥) فى م: « التزويج » .
(٦) فى م : « فى آيات » .

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ⑩ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ⑪ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا ⑫ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑬ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ⑭ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ⑮ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ⑯ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ⑰ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ⑱ ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلا ، وهو الذى لا عتاب معه . ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً ـ وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شيء ـ: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحابَ الأموال، فإنهم أقدر على الطاعة من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ، ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ أى : رويدا ، كما قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤]؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ وهى : القيود . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وطاوس ، ومحمد بن كعب ، وعبد الله بن بُرَيدة ، وأبو عمران الجونى ، وأبو مجلَز ، والضحاك ، وحماد بن أبى سلمان، وقتادة والسدى ، وابن المبارك والثورى ، وغير واحد ،﴿ وَجَحِيمًا ﴾: وهى السعير المضطرمة . ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ، قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أى : تزلزل، ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلا ﴾ أى : تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ، ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب ، حتى تصير الأرض قاعاً صفصفا ، لا ترى فيها عوجاً ، أى :واديا ، ولا أمتا ، أى: رابية ، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع .

ثم قال مخاطباً لكفار قريش ، والمراد سائر الناس : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أى: بأعمالكم، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً . فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة ،والسدى ، والثورى : ﴿ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ أى : شديدا ، أى : فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول ، فيصيبكم ما أصاب فرعونَ ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٥] ،وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران . ويُروَى عن ابن عباس ومجاهد .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ ، يحتمل أن يكون ﴿ يَوْمًا ﴾ معمولا لتتقون ، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود : « فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به » ؟ ويحتمل أن يكون معمولا لكفرتم ، فعلى الأول : كيفَ

يحصلُ لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ؟ وعلى الثانى : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ؟ وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى ، والله أعلم .

ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله ، وذلك حين يقول الله لآدم : ابعث بعثَ النار . فيقول : مِن كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة .

قال الطبرانى : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار . قال : من كم يا رب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، وينجو واحد » . فاشتد ذلك على المسلمين ، وعرف ذلك رسول الله ﷺ ثم قال حين أبصر ذلك فى وجوههم : « إن بنى آدم كثير ، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، وإنه لا يموت منهم رجل حتى يرثه لصلبه ألف رجل . ففيهم وفى أشباههم جنة لكم » (١) .

هذا حديث غريب ، وقد تقدم فى أول سورة الحج ذكر هذه الأحاديث .

وقوله : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ : قال الحسن ، وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله . ومنهم من يعيد الضمير على الله عز وجل .وروى عن ابن عباس ومجاهد،وليس بقوى؛لأنه لم يجر له ذكر هاهنا .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولا ، أى : واقعاً لا محالة ، وكائنا لا محيد عنه .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾ .

يقول تعالي : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي : السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : يتذكر بها أولو الألباب ؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أى : ممن شاء الله هدايته ، كما قيده في السورة الأخري : ﴿ وَمَا

(١) المعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٣٦٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٠) : « وفيه عثمان بن عطاء الخراسانى وهو ضعيف » .

تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الإنسان: ٣٠] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أى : تارة هكذا ، وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ؛ لأنه يشق عليكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، أو هذا من هذا ، ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أى : الفرض الذى أوجبه عليكم ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أى : من غير تحديد بوقت ، أى : ولكن قوموا من الليل ما تيسر . وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة سبحان : ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ أى : بقراءتك ، ﴿ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ .

وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة ، رحمه الله ، بهذه الآية ، وهى قوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه ؛ واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » .

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين أيضا : أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (١) . وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهى خِدَاج ، فهى خِدَاج ، فهى خِدَاج ،غير تمام » (٢) . وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعاً :« لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن » (٣) .

وقوله : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار فى ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين (٤) فى الأرض يبتغون من فضل الله فى المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين (٥) بما هو الأهم فى حقهم من الغزو فى سبيل الله. وهذه الآية ــ بل السورة كلها ــ مكية ، ولم يكن القتال شُرِع بعدُ ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة . ولهذا قال : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (٦) ﴾ أى: قوموا بما تيسر عليكم منه .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أبي رجاء محمد ،قال :قلت للحسن : يا أبا سعيد ، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ، ولا يقوم به ، إنما يصلي المكتوبة؟ قال : يتوسَّدُ القرآن ، لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا

(١) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) ، وصحيح مسلم برقم (٣٤٩) .
(٢) صحيح مسلم برقم (٣٩٥) .
(٣) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٠) .
(٤) فى أ : «ومسافرون» . (٥) فى أ : « وآخرون مشغولون » . (٦) فى م : «من القرآن» .

عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف:٦٨] ،﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ [الأنعام:٩١] . قلت : يا أبا سعيد، قال الله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ ؟ قال : نعم ، ولو خمس آيات .

وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصرى :أنه كان يرى حقاً واجباً على حَمَلة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه فى الليل ؛ ولهذا جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ سُئل عن رجل نام حتى أصبح ، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه » [١]. فقيل: معناه: نام عن المكتوبة. وقيل: عن قيام الليل. وفى السنن : « أوترُوا يا أهل القرآن » [٢]. وفى الحديث الآخر : « من لم يوتر فليس منا » [٣] .

وأغرب من هذا ما حكى عن أبى بكر عبد العزيز ، من الحنابلة ، من إيجابه قيام شهر رمضان ، فالله أعلم .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن سعيد بن فرقد الجُدّى ، حدثنا أبو [حمة] [٤] محمد بن يوسف الزبيدى ، حدثنا عبد الرحمن،[عن محمد بن عبد الله] [٥] بن طاوس ــ من ولد طاوس ــ عن أبيه ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ قال : « مائة آية » [٦] .

وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا فى معجم الطبرانى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أى : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة . وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النّصب والمَخْرَج لم تُبَين إلا بالمدينة . والله أعلم .

وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نَسَخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل . واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال كما تقدم . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : «خمس صلوات فى اليوم والليلة » . قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تَطوّع » [٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعنى : من الصدقات ، فإن الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة:٢٤٥] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١١٤٤) ، ومسلم فى صحيحه برقم (٧٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) جاء من حديث على وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهما ،أما حديث على ، فقد رواه أبو داود فى السنن برقم (١٤١٦) ، والترمذى فى السنن برقم (٤٥٣)، والنسائى فى السنن (٣/ ٢٢٨) ،وابن ماجة فى السنن برقم (١١٦٩) ، وقال الترمذى :« حديث على حديث حسن » ، وأما حديث ابن مسعود ، فرواه أبو داود فى السنن برقم (١٤١٧) ، وابن ماجة برقم (١١٧٠) .

(٣) جاء من حديث بريدة وأبى هريرة ،رضى الله عنهما ، أما حديث بريدة ، فرواه أحمد فى المسند (٥/ ٣٥٧)، وأبو داود فى السنن برقم (١٤١٩) ، وأما حديث أبى هريرة ، فرواه أحمد فى المسند (٣/ ٤٤٣) .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٢٩) .

(٥) زيادة من م ، أ .

(٦) المعجم الكبير (١١/ ٢٩) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٦)، وصحيح مسلم برقم (١١) من حديث طلحة رضى الله عنه .

وقوله : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أى : جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو [خير] (١) لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خَيْثَمة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم، عن الحارث بن سُوَيد (٢) قال : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ :« أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » . قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : «اعلموا ما تقولون » . قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخر » .

ورواه البخارى من حديث حفص بن غياث ، والنسائى من حديث (٣) أبى معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به (٤) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها ؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

آخر تفسير سورة « المزمل » ولله الحمد

(١) زيادة من م . (٢) فى أ :« الحارث بن يزيد » . (٣) فى م ، أ : « من طريق» .
(٤) مسند أبى يعلى (٩/٩٧) ، وصحيح البخارى برقم (٦٤٤٢) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (٦٤٣٩) .

سورة المزّمّل

مكّيّة، وهي تسعَ عشرةَ أو عشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المُتزمّل، مِن "تزمّل بثيابه" إذا تلفّف بها، فأُدغم "التاء" في "الزاء". وقد قُرئ على الأصل،[١] وقُرئ: "المُزَمَّلُ" مِن زمّله مبنيًا للمفعول[٢] ومبنيًّا للفاعل.[٣] قيل: خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تهجينًا لِما كان عليه مِن الحالة، حيث كان عليه السلام متلفِّفًا بقطيفة مستعدًّا للنوم، كما يفعله مَن لا يهمّه أمر ولا يعنيه شأن، فأُمر بأن يترك التزمّل إلى التشمّر للعبادة والهُجودَ إلى التهجّد.[٤]

وقيل: دخل عليه السلام على خديجة وقد جُئثَ[٥] فرَقًا[٦] أوّلَ ما أتاه جبريلُ عليهما السّلام وبَوادرُه[٧] تَرعد، فقال: زمّلوني، فحُسِب أنّه عُرِض له، فبَيْنَا هو على ذلك إذ ناداه جبريلُ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.[٨] فيكون تخصيص وَصْف التزمّل بالخطاب للمُلاطَفة والتأنيس، كما في قوله عليه السلام لعليّ رضي الله عنه

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٤٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٨.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٩.

٥ جُئثَ: فزِع. لسان العرب لابن منظور، «جأث».

٦ الفرَق: الخوف والذُّعر. لسان العرب لابن منظور، «فرق».

٧ البوادر جمع البادرة: وهي مِن الإنسان اللحمة بين المَنكِب والعنق. لسان العرب لابن منظور، «بدر».

٨ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٩.

حين غاضَب فاطمةَ رضي الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب: «قُمْ يا أبا تراب»[١] ملاطفةً له وإشعارًا بأنّه غير عاتب عليه.

وقيل: المعنى: يا أيّها الذي زُمِّل أمرًا عظيمًا هو أمر النبوّة،[٢] أي: حُمِّله، والزِمْل: الحِمل، وازدملَه، أي: احتمله، فالتعرّض للوصف حينئذ للإشعار بعلّيّته للقيام أو للأمر به، فإنّ تحميله عليه السلام لأعباء النبوّة ممّا يُوجب الاجتهاد في العبادة.

[٢٣٦و] ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ أي: قُمْ إلى الصلاة. وانتصابُ / ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على الظرفيّة. وقيل: القيام مستعار للصلاة، ومعنى ﴿قُمِ﴾: صلّ.[٣] وقُرئ بضمّ "الميم"[٤] وبفتحها.[٥] ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ الباقي بعد الثُّنيا[٦] بدلَ الكلّ، أي: قُم نصفَه. والتعبير عن النصف المُخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارِن للقيام، والإيذانِ بفضله، وكونِ القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب، واعتبارِ قلّته بالنسبة إلى الكلّ مع عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر. ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ أي: أنقِص القيام مِن النصف المقارن له في الصورة الأولى ﴿قَلِيلًا﴾ أي: نقصًا قليلًا، أو مقدارًا قليلًا بحيث لا ينحطّ إلى نصف النصف.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: زِد القيام على النصف المقارن له، فالمعنى تخييره عليه السلام بين أن يقوم نصفَه أو أقلّ منه أو أكثرَ.

وقيل: قوله تعالى ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلٌ مِن ﴿قَلِيلًا﴾، والتخيير بحاله.[٧] وليس بسديد، أمّا أوّلًا فلأنّ الحقيق بالاعتناء الذي يُنبئ عنه الإبدال هو الجزء الباقي

---

١ المعجم الكبير للطبراني، ٦/٢٠٢ (٦٠١٠).

٢ مرويّ عن عكرمة في جامع البيان للطبري، ٢٣/٣٥٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٩.

٣ هو مِن أمثلة المجاز المرسل الذي سُمّي فيه الشيء باسم جزئه عند البلاغيّين. انظر: الإيضاح للقزويني، ص ٣٩٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

٦ الثُّنيا: الاستثناء. لسان العرب لابن منظور، «ثني».

٧ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٩؛ والتبيان للعكبري، ٢/١٢٤٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٦٠.

بعد الثُّنيا المقارن للقيام لا الجزء المخرَجُ العاري عنه، وأمّا ثانيًا فلأنّ نقص القيام وزيادته إنّما يعتبران بالقياس إلى مِعياره الذي هو النصف المقارن له، فلو جعل ﴿نِصْفَهُۥ﴾ بدلًا مِن ﴿قَلِيلًا﴾ لزم اعتبارُ نقصِ القيام وزيادتِه بالقياس إلى ما هو عارٍ عنه بالكلّيّة، والاعتذارُ بتساوي النصفين مع كونه تمحُّلًا ظاهرًا اعترافٌ بأنّ الحقّ هو الأوّل.

وقيل: ﴿نِصْفَهُۥ﴾ بدل مِن ﴿ٱلَّيْلَ﴾ و﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء مِن النصف، والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾ للنصف، والمعنى التخيير بين أمرين: بين أن يقوم أقلّ مِن نصف الليل على البتات، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان مِن النصف والزيادة عليه. وقيل: الضميران للأقلّ مِن النصف، كأنّه قيل: قم أقلّ مِن نصفه أو قم أنقص مِن ذلك الأقلّ أو أزيدَ منه قليلًا.[١] وقيل وقيل.[٢]

والذي يليق بجزالة التنزيل هو الأوّل.[٣] والله أعلم بما في كتابه الجليل.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ في أثناء ما ذُكر مِن القيام، أي: اقرأه على تَؤدة وتبيين حروف ﴿تَرْتِيلًا﴾ بليغًا بحيث يتمكّن السامع مِن عدّها، مِن قولهم: "ثَغْر رَتْل وَرَتِل" إذا كان / مفلَّجًا. [٢٣٦ظ]

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾ أي: سنُوحي إليك، وإيثارُ "الإلقاء" عليه لقوله تعالى: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، وهو القرآن العظيم المُنطوي على تكاليفَ شاقّة ثقيلة على المكلَّفين لا سيّما على الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه عليه السلام مأمور بتحمُّلها وتحميلها للأمّة. والجملة اعتراضٌ بين الأمر وتعليله لتسهيل ما كُلِّفه عليه السلام مِن القيام.

وقيل: معنى كونه ثقيلًا أنّه رصين لرَزانة لفظه ومتانة معناه، أو ثقيلٌ على المتأمِّل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسرّ وتجريدٍ للنظر،[٤] أو ثقيلٌ في الميزان،[٥]

---

[١] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٤؛ والتبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

[٢] س – وقيل.

[٣] كما في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢.

[٤] هذان الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

[٥] مرويّ عن الحسين بن الفضل في معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٢/٨؛ وعن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٤.

أو على الكفّار والفُجّار، أو ثقيل تلقّيه.[١] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان إذا نزل عليه الوحيُ ثقُل عليه وتربّد له جِلده».[٢] وعن عائشةَ رضي الله عنها: «رأيتُه ينزل عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد فيُفصِم[٣] عنه وإنّ جبينه ليَرْفَضّ[٤] عَرَقًا».[٥]

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: إنّ النفس التي تنشأ مِن مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض، مِن "نشأ مِن مكانه" إذا نهض، أو إنّ قيام الليل، على أنّ الناشئة مصدر مِن "نشأ" كـ"العافية"، أو إنّ العبادة التي تنشأ بالليل، أي: تحدُث أوان ساعات الليل، فإنّها تحدُث واحدةً بعد واحدة، أو ساعاتها الأوَل مِن "نشأ" إذا ابتدأ.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: هي خاصّةً أشدّ ثباتَ قدمٍ أو كلفةً، فلا بدّ مِن الاعتناء بالقيام. وقُرئ: "وِطَاءً"،[٦] أي: أشدّ مواطأة يواطئ قلبُها لسانَها إن أريد بها النفس، أو يواطئ فيها قلبُ القائم لسانَه إن أريد بها القيام أو العبادة أو الساعات، أو أشدّ مُوافقةً لِما يُراد مِن الخشوع والإخلاص.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وأسدّ مقالًا وأثبَت قراءةً لحضور القلب وهدوء الأصوات.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: تقلّبًا وتصرّفًا في مهمّاتك واشتغالًا بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرّغ للعبادة، فعليك بها في الليل، وهذا بيان للداعي

---

١ هذان الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٦٠.

٢ مسند أحمد، ٤/٣٤ (٢١٣١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٠.

٣ يُفصِم عنه، أي: يقلع عنه. لسان العرب لابن منظور، «فصم».

٤ ارفضّ العَرَقُ: جرى وسال. لسان العرب لابن منظور، «رفض».

٥ صحيح البخاري، ١/٦ (٢)؛ صحيح مسلم، ٤/١٨١٦ (٢٣٣٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٠.

٦ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

الخارجي إلى / قيام الليل بعد بيان ما في نفسه مِن الداعي. وقُرئ: "سَبْخًا"،[1] [٢٣٧و] أي: تفرُّق قلب بالشواغل، مستعار مِن "سَبْخ الصوفِ"، وهو نفشُه ونَشْر أجزائه.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ودُمْ على ذِكره تعالى ليلًا ونهارًا على أيّ وجه كان مِن تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءةِ قرآن ودِراسة عِلم.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي: وانقطِعْ إليه بمَجامع الهمّة واستغراق العزيمة في مراقبته، وحيث لم يكن ذلك إلّا بتجريد نفسه عليه السلام عن العوائق الصادّة عن مراقبة الله تعالى وقطعِ العلائق عمّا سواه قيل: ﴿تَبْتِيلًا﴾ مكان "تبتُّلًا"، مع ما فيه مِن رعاية الفواصل.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مرفوع على المدح. وقيل: على الابتداء، خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.[2] وقُرئ بالجرّ[3] على أنّه بدل مِن ﴿رَبِّكَ﴾. وقيل: على إضمار حرف القسم، جوابه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.[4] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ لترتيب الأمر ومُوجَبه على اختصاص الألوهيّة والربوبيّة به تعالى.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ممّا لا خير فيه مِن الخرافات ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأن تُجانبهم وتُدارئَهم ولا تكافئهم وتَكِلَ أمورهم إلى ربّهم، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: دعني وإيّاهم وكِلْ أمرَهم إليّ فإنّي أكفيكَهم. ﴿أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أربابَ التنعّم وهم صناديد قريش ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ زمانًا قليلًا.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ جمع "نِكْل" وهو القيد الثقيل، والجملة تعليل للأمر، أي: إنّ لدينا أمورًا مضادّة لتنعّمهم ﴿وَجَحِيمًا ۞ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلوق ولا يكاد يُساغ كالضّريع والزقّوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعًا آخر مِن العذاب مؤلِمًا لا يُقادَر قَدْره ولا يُدرك كُنهه، كلّ ذلك مُعدّ لهم ومُرصَد.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

٢ هذا الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦١/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٩.

٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

٤ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٨١/٤-٤٨٢.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تضطرب وتتزلزل، ظرف للاستقرار / الذي تعلَّق به ﴿لَدَيْنَا﴾. وقيل: متعلِّق بمضمر هو صفة لـ﴿عَذَابًا﴾، [٢٣٧ظ]
أي: عذابًا واقعًا يوم ترجف.[١] ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿كَثِيبًا﴾ رملًا مجتمِعًا مِن "كَثَب الشيءَ" إذا جَمَعه، كأنّه فعيل بمعنى مفعول. ﴿مَّهِيلًا﴾ منثورًا مِن "هِيل هَيْلًا" إذا نُثِر وأُسِيلَ.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد يوم القيامة بما صدَر عنكم مِن الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو موسى عليه السلام. وعدمُ تعيينه لعدم دَخْله في التشبيه.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي أرسلناه إليه، ومحلّ "الكاف" النصب على أنّها صفة لمصدر محذوف، أي: إنّا أرسلنا إليكم رسولًا فعصيتموه، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾، إرسالًا كائنًا كما أرسلنا إلى فرعون رسولًا فعصاه، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ خارج مِن التشبيه جيء به للتنبيه على أنّه سيَحيق بهؤلاء ما حاقَ بأولئك لا محالةَ. والوبيل: الثقيل الغليظ مِن قولهم: "كلأٌ وبيلٌ"، أي: وخيم لا يُستمرَأ لثِقله، والوبيل: العصا الضخمة.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تقُون أنفسكم ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: بقيتُم على الكفر ﴿يَوْمًا﴾ أي: عذاب يوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ مِن شدّة هَوْله وفظاعةِ ما فيه مِن الدّواهي ﴿شِيبًا﴾ شُيوخًا جمع "أشيَب" إمّا حقيقةً أو تمثيلًا، وأصله أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء ضعُفت قواه وأسرعَ فيه الشيب. وقد جُوّز أن يكون ذلك وصفًا لليوم بالطُّول.[٢] وليس بذاك.

---

[١] هذا الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٧١/١٩.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٣/٤.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ أي: منشق. وقُرئ: "مُتَفَطِّرٌ"،[١] أي: متشقِّق، والتذكير لإجرائه على موصوف مذكَّر، أي: شيءٌ منفطِر، عُبِّر عنها بذلك للتنبيه على أنّه تبدّلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبقَ منها إلّا ما يُعبَّر عنه بالشيء. وقيل: لتأويل السماء بالسَّقف. / وقيل: هو مِن باب النسَب، أي: ذات انفطار.[٢] [٢٣٨و]

و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ مثلُها في "فطرْتُ العودَ بالقَدوم" ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ الضمير لله عزّ وجلّ، والمصدر مضاف إلى فاعله، أو لـ"اليوم" وهو مضاف إلى مفعوله.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بالتقرّب إليه بالإيمان والطاعة، فإنّه المنهاج المُوصِل إلى مرضاته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أقلّ منهما، استُعير له الأدنى لِما أنّ المسافة بين الشيئين إذا دنَت قلّ ما بينهما مِن الأحياز. ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿أَدْنَىٰ﴾. وقُرئا بالجرّ[٣] عطفًا على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾. ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم معك طائفة مِن أصحابك.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٣.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٣.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وحدَه لا يقدِر على تقديرهما أحد أصلًا، فإنّ تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناءَ يقدّر عليه موجِبٌ للاختصاص قطعًا، كما يعرِب عنه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: علم أنّ الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبدًا. ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالترخيص في ترك القيام المقدور ورفع التبِعة عنكم في تَرْكه.

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فصلّوا ما تيسّر لكم مِن صلاة الليل، عُبّر عن الصلاة بالقراءة، كما عُبّر عنها بسائر أركانها. قيل: كان التهجّد واجبًا على التخيير المذكور فعسُر عليهم القيام به فنُسخ به، ثمّ نُسخ هذا بالصلوات الخمس. وقيل: هي قراءة القرآن بعينها، قالوا: مَن قرأ مائة آية مِن القرآن في ليلة لم يحاجّه. وقيل: مَن قرأ مائة آية كُتب مِن القانتين. وقيل: خمسين آيةً.[١]

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ استئناف مبيّن لحكمة أخرى داعية إلى الترخيص والتخفيف. ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُسافرون فيها للتجارة ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الربح، / وقد عُمّم ابتغاءُ الفضل لتحصيل العِلم. [٢٣٨ظ]
﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإذا كان الأمر كما ذُكر وتعاضدت الدواعي إلى الترخيص ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ مِن غير تحمُّل المشاقّ.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المفروضة ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة. وقيل: هي زكاة الفطر؛ إذ لم يكن بمكّة زكاة، ومَن فسّرها بالزكاة المفروضة جَعَل آخرَ السورة مدنيًا.[٢] ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ أريدَ به الإنفاقات في سبيل الخيرات أو أداءُ الزكاة على أحسن الوجوه وأنفعِها للفقراء.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أيّ خير كان ممّا ذُكر وما لم يُذكَر ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ مِن الذي تُؤخّرونه إلى الوصيّة عند الموت، و﴿خَيۡرٗا﴾ ثاني مفعولَي ﴿تجِدُوا﴾، وهو تأكيد أو فَصْل وإن لم يقع بين معرفتين،

---

[١] هذه الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٤.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٤.

فإنّ "أَفْعَلَ مِنْ" في حُكم المعرفة، ولذلك يمتنع مِن حرف التعريف. وقُرِئَ: "هُوَ خَيْرٌ"[١] على الابتداء والخبر.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ في كافّة أحوالكم، فإنّ الإنسان قلّما يخلو مِن تفريط، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المُزَّمِّل رفع الله عنه العُسر في الدنيا والآخرة».[٢]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال والبصري والعَنبري والأديب عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٨٥٠.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦٨/٢٧ (المزمل، ٧٣/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧١/٤ (المزمل، ٧٣/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧٣

سورة المزمل

مكية، أو إلاّ قوله «إنّ ربك يعلم» إلى آخرها فمدني، تسعَ عشْرةَ أو عشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يا أيُّها المُزَّمِّلُ﴾: النبيُّ ـ وأصله «المُتَزَمِّل»، أُدغمَتِ التاءُ في الزاي ـ أي: المُتلفِّف بثِيابه حِين مجيء الوحي له خوفًا منه لهَيبته، ٢ ـ ٣ ـ ﴿قُمِ اللَّيلَ﴾: صَلِّ ﴿إلاّ قَليلاً، نِصفَهُ﴾: بدلٌ من «قليلاً»، وقِلّتُه بالنظر إلى الكُلّ، ﴿أوِ انقُصْ مِنهُ﴾: من النصف ﴿قَليلاً﴾ إلى الثُّلث، ٤ ـ ٥ ـ ﴿أو زِدْ علَيهِ﴾ إلى الثُّلثين ـ وأو: للتخيير ـ ﴿ورَتِّلِ القُرآنَ﴾: تثبّتْ في تِلاوته ﴿تَرتِيلاً. إنّا سَنُلقِي علَيكَ قَولاً﴾ أي: قُرآنًا ﴿ثَقِيلاً﴾: ....

سورة المزمل

قولُهُ: (المُتَزَمِّلُ) وقُرِئَ به[(١)].

قولُهُ: (أي: المتَلَفِّفُ) أو المتحَمِّلُ أعباءَ النُّبوَّةِ.

قولُهُ: (صَلِّ) أي: قُم إلى الصَّلاةِ، أو داوِم عليها فيه.

قولُهُ: (من ﴿قَلِيلاً﴾) وهو استِثناءٌ من: ﴿اللَّيل﴾.

قولُهُ: (إلى الكُلِّ) وهذا النِّصفُ الخالي عن الطَّاعَة، وإن ساوى النِّصفَ المعهودَ بذكرِ الله في الكمِّيَّةِ لا يُساويهِ في التَّحقيقِ والكَيفيَّةِ، بل هو القَليلُ، وذلك النِّصفُ بمنزِلَةِ الكُلِّ.

قولُهُ: (تَثبَّتْ) بأن تقرَأهُ على تُؤدَة؛ فإنَّه تجويدُ الحُروفِ ومعرفَةُ الوقوفِ.

قولُهُ: (﴿قَولاً﴾) لا يحمِلُهُ إلَّا قَلبٌ مُؤيَّدٌ بالتَّوفيقِ، ونفسٌ مُزيَّنةٌ بالتَّوحيدِ والتَّحقيقِ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٩٠).

مَهيبًا أو شديدًا لِما فيه من التكاليف. ٦ ـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾: القيامَ بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وِطَاءً﴾: مُوافقة السمع للقلب على تفهّم القرآن ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: أبينُ قولاً. ٧ ـ ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾: تصرُّفًا في أشغالك، لا تفرُغ فيه لتلاوة القرآن.

٨ ـ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: قل: «بسم الله الرحمن الرحيم» في ابتداء قِراءتك، ﴿وَتَبَتَّلْ﴾: انقطع ﴿إِلَيْهِ﴾ في العبادة ﴿تَبْتِيلًا﴾: مصدرُ: بَتّل. جيء به رِعاية للفواصل، وهو ملزوم التبتّل.............

قولُهُ: (أو شَدِيداً) أو ثَقيلاً في الميزانِ، أو على الكُفّارِ والفُجّارِ.

قولُهُ: (القِيَامَ) أي: قيامَ اللَّيلِ على أنَّ النَّاشئَةَ مصدرٌ للقيامِ أو العبادَةِ التي تنشأ باللَّيلِ؛ أي: تحدُثُ.

قولُهُ: (مُوَافَقَة) هذا تَفسيرٌ لقراءَةِ بصريٍّ وشاميٍّ: (وِطَاءً) بكسرِ الواو والمدِّ[١]؛ أي: مواطأةَ القلبِ اللِّسانَ للنَّاشئَةِ، أو فيها، أو مُوافقةً لما يرادُ من الخضوعِ والإخلاصِ.

(والبَاقُونَ) (وَطْأً) كنصراً؛ أي: كُلفةً أو ثباتَ قدمٍ.

قولُهُ: (أَبْيَنُ) أو أسدُّ مَقالاً، وأثبتُ قراءَةً لحضورِ القلبِ وهدوءِ الأصواتِ، وأبعَدُ من الرِّياءِ والسُّمعةِ.

قولُهُ: (تَصَرُّفاً) وتقلُّباً في مهمَّاتكَ فعليكَ بالتَّهجُّدِ، فإنَّ مناجاةَ الرَّبِّ تستدعي فراغَ القلبِ.

قولُهُ: (فِي ابتِدَاءِ قِرَاءَتِك) هذا يلائِمُ مذهَبَنا[٢] أنَّ البسملَةَ ليست داخلَةً في القراءَةِ نفسها حتَّى يكونَ مأموراً بأن يبدأ بها كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، فإنَّ الاستعاذَةَ ليست من القُرآنِ إجماعاً، هذا وتفسيرُ الشَّيخِ[٣] غريبٌ، والمشهورُ في معناهُ: دُم على ذكرِهِ ليلاً ونَهاراً، وذكرُ الله يتناوَلُ كلَّ ما يذكَرُ به من تَسبيحٍ وتهليلٍ وتحميدٍ وصلاةٍ وقراءَةِ قُرآنٍ ودراسَةِ علمٍ.

قولُهُ: (في العِبَادَةِ) أو بها.

(وجَرِّد) نفسَك عمَّا سواهُ.

قولُهُ: (هُو) يعني: أنَّ المبتدأ مُقدَّرٌ، وقيلَ: لا تقدير، وخبرُهُ: ﴿لا إله إلا هُوَ﴾، وقرأ الشَّاميُّ والكوفيُّ غير حفصٍ بالجرِّ[٤] على البدلِ من: ﴿رَبِّكَ﴾.

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٩).

(٢) انظر: «البناية» (٢/ ١٩٢).

(٣) الشيخ المحلي رحمه الله.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٦).

٩ ـ هو ﴿رَبُّ المَشرِقِ والمَغرِبِ، لا إلٰـهَ إلاّ هُوَ. فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾: موكولاً له أمُورُك، ١٠ ـ ﴿واصبِرْ علَى ما يَقُولُونَ﴾، أي: كُفّارُ مكّة من أذاهم، ﴿واهجُرْهُم هَجرًا جَمِيلاً﴾: لا جزعَ فيه ـ وهذا قبل الأمر بقِتالهم ـ ١١ ـ ﴿وذَرْنِي﴾: اتركني ﴿والمُكَذِّبِينَ﴾: عطفٌ على المفعول، أو مفعولٌ معه ـ والمعنى: أنا كافيكَهُم، وهم صناديد قُريش ـ ﴿أُولِي النَّعْمةِ﴾: التنعّم ﴿ومَهِّلْهُم قَلِيلاً﴾ من الزمن. فقُتلوا بعد يسير منه ببدر.

١٢ ـ ﴿إنَّ لَدَينا أنكالاً﴾: قُيودًا ثِقالاً، جمعُ نِكْل بكسر النون ﴿وجَحِيمًا﴾: نارًا مُحرقة، ١٣ ـ ﴿وطَعامًا ذا غُصّةٍ﴾: يُغَصّ به في الحلق ـ وهو الزقّوم أو الضريع، أو الغِسلينُ أو شوك من نار ـ لا يخرج ولا ينزل ﴿وعَذابًا أَلِيمًا﴾: مُؤلمًا زيادة على ما ذُكر لمن كذّب النبيّ، ١٤ ـ ﴿يَومَ تَرجُفُ﴾: تَزَلزلُ ﴿الأرضُ والجِبالُ، وكانَتِ الجِبالُ كَثِيبًا﴾: رملاً مُجتمِعًا ﴿مَهِيلاً﴾: سائلاً بعد اجتماعه. وهو مِن: هالَ يَهيلُ. ....

قولُهُ: (من أَذَاهُم) أي: على ما يقولونَ فينا، أو فيكَ، أو في القُرآنِ.

قولُهُ: (لا جَزَعَ) أو بأن تجانبَهُم وتُداريَهُم.

قولُهُ: (عَلَى المَفعُولِ) أي: دعني وإيَّاهُم وكِلْ إليَّ أمرَهُم.

قولُهُ: (مِنَ الزَّمَنِ) أو الإمهالِ.

قولُهُ: (يَغُصُّ) ويعترِضُ وينشَبُ.

قولُـهُ: (مُؤلِماً) أي: نَوعاً آخرَ من العذابِ مؤلماً لا يعرِفُ كنهَهُ إلا الله، وفسَّرَ العذابَ بالحرمانِ عن لقاءِ الله تعالى، ولذا قيلَ: الحجابُ أشدُّ العذابِ.

قولُهُ: (تُزَلزَلُ) بحذفِ إحدى التَّاءينِ؛ أي: تضطَرِبُ.

قولُهُ: (رَملاً) إنَّما أعيدَ لفظُ: ﴿الجِبَالِ﴾ والقياسُ الإضمارُ؛ لتقدُّمِ ذكرِها؛ لأنَّ الآيَةَ سيقَت للتَّخويفِ والتَّنبيهِ على عِظَمِ الأمرِ، فإعادةُ الضَّميرِ[1] أبلغُ، وأيضاً لو لم يذكرِ الجبالَ لكان الضَّميرُ مُحتمِلاً أن يعُودَ إلى ﴿الأَرضِ﴾، فذكرَ ﴿الجبَالَ﴾ بظاهرِها دفعاً لهذا الاحتِمالِ.

قولُهُ: (سَائِلاً) مَنثوراً.

قولُهُ: (من هَالَ) إذا نُثِرَ وسالَ.

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الصواب: الظاهر، ليناسب السياق.

وأصله «مَهْيُول» استُثقلت الضمّةُ على الياء فنقلت إلى الهاء، وحُذفَتِ الواو ثاني الساكنين لزيادتها، وقُلبت الضمّة كسرة لمجانسة الياء.

١٥ ـ ﴿إنّا أرسَلْنا إلَيكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ﴿رَسُولاً﴾ هو مُحمّد ﷺ ﴿شاهِدًا علَيكُم﴾ يوم القيامة بما يصدر منكم من العِصيان ﴿كَما أرسَلْنا إلَى فِرعَونَ رَسُولاً﴾ هو مُوسَى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ١٦ ـ ﴿فعَصَى فِرعَونُ الرَّسُولَ، فأخَذْناهُ أخذًا وَبِيلاً﴾: شديدًا.

١٧ ـ ﴿فكَيفَ تَتَّقُونَ، إن كَفَرتُم﴾ في الدنيا، ﴿يَومًا﴾: مفعول «تتّقون» أي: عذابَه، أي: بأيِّ حِصن تتحصّنون من عذاب يومٍ، ﴿يَجعَلُ الوِلدانَ شِيبًا﴾: جمع أشيَبَ لشِدّة هوله، وهو يوم القيامة ـ والأصل في شين «شيب» الضمّ، وكُسرت لمجانسة الياء. ويقال في اليوم الشديد: يومٌ يُشِيب نواصيَ الأطفال. وهو مجاز. ويجوز أن يكون المُراد في الآية الحقيقةَ ـ ١٨ ـ ﴿السَّماءُ مُنفَطِرٌ﴾: ذاتُ انفطارٍ أي: انشقاقٍ ﴿بِهِ﴾: ....

قولُهُ: (ثَانِي السَّاكِنَينِ) عندَ سيبَويه[١] وأوّلُهما عندَ الأخفَشِ[٢]، وقُلِبت الواو ياءً.

قولُهُ: (منَ العِصيَانِ) والطَّاعَةِ.

قولُهُ: (هُوَ مُوسَى) ولم يُعيِّنهُ؛ لأنَّ المقصودَ لم يتعلَّق به.

قولُهُ تَعَالَى: (﴿الرَّسُول﴾) عرَّفَهُ لسبقِ ذكرِهِ.

قولُهُ: (شَدِيداً) ثَقيلاً غليظاً بالإغراقِ في الدُّنيا، وبالإحراقِ في العُقبى.

قولُهُ: (فِي الدُّنيَا) أي: إن بَقيتُم على الكفرِ.

قولُهُ: (وكُسِرَتْ) كبِيْض، جمعُ: أبيَض.

قولُهُ: (وَهوَ مَجَازٌ) أي: تَمثيلٌ للشِّدَّةِ، وأصلُهُ: أنَّ الهُمومَ تضعِفُ القوى وتُسرِعُ بالشَّيبِ، وقيل: هذا على الفرَضِ؛ أي: لو وجِدَ وِلْدانٌ.

قولُهُ: (الحَقِيقَةُ) بأن يكونَ وَصفَ اليومَ بالطُّولِ.

قولُهُ: (ذَاتُ انْفِطَارٍ وانشِقَاقٍ) يعني: على النَّسَبِ والتَّذكيرِ على تأويلِ الشَّقِّ، وإضمارِ شيءٍ، وقيل: السَّماءُ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ.

---

(١) انظر: «الكتاب» (٤/ ٣٨٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» (١/ ٥٠).

بذلك اليوم لشِدّته؟ ﴿كَانَ وَعدُهُ﴾ ـ تعالى ـ بمجيء ذلك اليوم ﴿مَفعُولاً﴾، أي: هو كائن لا محالة.
١٩ ـ ﴿إِنَّ هذِهِ﴾ الآياتِ المُخوِّفةَ ﴿تَذكِرةٌ﴾: عِظة للخلق. ﴿فَمَن شاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾: طريقًا بالإيمان والطاعة.

٢٠ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنَى﴾: أقلَّ ﴿مِن ثُلُثَيِ اللَّيلِ ونِصفِهِ وثُلُثِهِ﴾ ـ بالجرّ: عطفٌ على «ثُلثي»، وبالنصب: عطفٌ على «أدنى». وقِيامُه كذلك نحوُ ما أُمر به أوّلَ السورة ـ ﴿وطائفةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾: عطفٌ على ضمير «تقوم»، وجاز من غير تأكيد للفصل ـ وقِيامُ طائفة من أصحابه كذلك للتأسّي به. ومنهم من كان لا يدري: كم صلّى من الليل؟ وكم بقي منه؟ فكان يقوم الليل كُلّه احتياطًا، فقاموا حتّى انتفخت أقدامهم سَنة أو أكثر، فخُفّف عنهم ـ قال تعالى: ﴿واللهُ يُقَدِّرُ﴾: يُحصي ﴿اللَّيلَ والنَّهارَ، عَلِمَ أن﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة واسمها محذوف، أي: أنّه ﴿لَن تُحصُوهُ﴾ أي: الليلَ لتقوموا فيما يجب القِيام فيه، إلاّ بقِيام جميعه، وذلك يشُقّ عليكم، ﴿فتابَ عليكُم﴾: رجَعَ بكم إلى التخفيف. ﴿فاقرَؤُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرآنِ﴾ في الصلاة بأن تُصلّوا ما تيسّر.

قولُهُ: (بِذَلكَ اليَومِ) أو بشدَّةِ ذلكَ اليَومِ مع عظَمِها وإحكامِها فضلاً عن غيرِها، والباءُ للآلَةِ، وقيلَ: للسَّببيَّةِ، وقيلَ: للظَّرفيَّةِ.

قولُهُ: (تَعَالَى) يعني: الضَّميرُ للَّه، وقيلَ: لليَومِ على إضافَتِهِ إلى المفعولِ.

قولُهُ تَعَالَى: (﴿فَمَن شَاءَ﴾) أي: أن يتَّعظَ.

قولُهُ: (أَقَلَّ) استَعارَ الأدنى للأقَلِّ؛ لأنَّ الأقربَ إلى الشَّيءِ أقَلُّ بُعداً منه.

قولُهُ: (وبِالنَّصبِ) مكِّيٌّ وكوفيٌّ[1].

قولُهُ: (للفَصلِ) أي: ويَقولُ ذلك جَماعَةٌ من أصحابِكَ، و﴿من﴾ بَيانيَّةٌ أو تبعيضيَّةٌ.

قولُهُ: (يُحصِي) أي: لا يعلَمُ مقاديرَ ساعاتِهِما كما هي إلا اللهُ.

قولُهُ: (أي: اللَّيلَ) أي: لن تُحصُوا تقديرَ الأوقاتِ، ولن تُطيقوا ضبطَ السَّاعاتِ.

قولُهُ: (إلى التَّخفِيفِ) بالتَّرخيصِ في تركِ القيامِ المقدَّرِ، ورفعِ التَّبعَةِ فيه.

قولُهُ: (مَا تَيَسَّرَ) عليكُم من صلاةِ اللَّيلِ، عبَّر عن الصَّلاةِ بالقراءَةِ كما عبَّرَ عنها بسائرِ الأركانِ، أو المرادُ بـ﴿القُرآنِ﴾: القراءاتُ السَّبعُ على ما في البُخاري[2]، قيل: كانَ التَّهجُّدُ واجباً على التَّخييرِ المذكورِ، فعَسُرَ

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٩).

(٢) روى البخاري (٧٥٥٠)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولفظه قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه».

﴿عَلِمَ أنْ﴾: مُخففة من الثقيلة، أي: أنّه ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَرضَى، وآخَرُونَ يَضرِبُونَ في الأرضِ﴾: يُسافرون، ﴿يَبتَغُونَ مِن فَضلِ اللهِ﴾: يطلبون من رزقه بالتجارة وغيرها، ﴿وآخَرُونَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ﴾. وكُلّ من الفِرَق الثلاث يشُقّ عليهم ما ذُكر في قيام الليل، فخُفّف عنهم بقيام ما تيّسر منه، ثمّ نُسخ ذلك بالصلوات الخمس. ﴿فاقرَؤُوا ما تَيَسَّرَ مِنهُ﴾ كما تقدم ﴿وأقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ المفروضة، ﴿وآتُوا الزَّكاةَ، وأقرِضُوا اللهَ﴾ بأن تُنفقوا ما سوى المفروض من المال في سبيل الخير ﴿قَرضًا حَسَنًا﴾ عن طِيب قلب. ﴿وما تُقَدِّمُوا لِأنفُسِكُم مِن خَيرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيرًا﴾ ممّا خلّفتم، وهو: فصلٌ وما بعده، وإن لم يكن معرفة، يُشبهها لامتناعه من التعريف، ﴿وأعظَمَ أجرًا ـ واستَغفِرُوا اللهَ. إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للمُؤمنين.

عليهم القيامُ به فنسَخَ به، ثمَّ نسخَ هذا بالصَّلواتِ الخمسِ، ومذهَبُ الحسنِ البصريِّ[1] وبعضٌ آخرُ أنَّ الواجِبَ على حمَلَةِ القُرآنِ أن يقوموا من اللَّيلِ ولو بشَيءٍ منه، وفي الأحاديثِ ما يدُلُّ على ذلك[2].

قولُهُ: (وغَيرِهَا) كالحَجِّ وطلَبِ العِلمِ.

قولُهُ: (كَمَا تَقَدَّمَ) أو اكتفوا بالقراءَةِ، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (بأَن تُنفِقُوا) وهذا يدُلُّ على قولِ من قالَ: إنَّ فرضَ الزَّكاةِ بمكَّةَ، لكنَّ المقاديرَ والمصارِفَ لم تتبَيَّنْ إلا بالمدينَةِ.

قولُهُ: (مَا سِوَى المفرُوضِ) أو المرادُ به: الأمرُ بأداءِ الزَّكاةِ على أحسَنِ وجهٍ، والتَّرغيبُ فيه بوَعدِ العِوَضِ.

قولُهُ: (عَن طِيبِ قَلبٍ) ووجهِ حلالٍ، وبأن يكونَ مقروناً بإخلاصٍ.

قولُهُ: (مِمَّا خَلَّفتُم) من مَتاعِ الدُّنيا، أو من الذي تؤخِّرونَهُ إلى الوصيَّةِ عند الموتِ، وهو ثاني مفعولَي: ﴿تَجِدُوه﴾.

قولُهُ: (وَهُوَ فَصْلٌ) أو تأكيدٌ.

قولُهُ: (يُشبِهُهَا) لأنَّ أفعَلَ مِنْ كالمعرفَةِ.

قولُهُ: (مِنَ التَّعرِيفِ) أي: حَرفِه، والله أعلمُ.

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٦٩٨) عن أبي رجاء محمد، قال. قلت للحسن: يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، فلا يقوم به، إنما يصلي المكتوبة، قال: يتوسد القرآن، لعن الله ذاك؛ قال الله للعبد الصالح: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ قلت: يا أبا سعيد قال الله: ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ قال: نعم، ولو خمسين آية.

(٢) روى أبو داود (١٤١٦)، والترمذي (٤٥٣)، والنسائي (١٦٧٥)، وابن ماجه (١١٦٩)، وأحمد في «مسنده» (٨٧٧) عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، أوتروا، فإن الله وتر، يحب الوتر». قال الترمذي: حديث حسن.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مكّيَّة كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة ـ كما ذكر الماورديُّ[1] ـ إلَّا آيتين منها: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [الآية: ١٠] والتي تليها. وحكى في «البحر»[2] عن الجمهور أنَّها مكّيَّة إلَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ [الآية: ٢٠] إلى آخرها، وتعقَّبه الجلال السيوطيُّ بعد أنْ نقل الاستثناء عن حكاية ابنِ الفرس بقوله: ويردُّه ما أخرجه الحاكم عن عائشةَ أنَّ ذلك نزل بعد نزول صدر السورة بسَنَة، وذلك حين فُرضَ قيامُ الليل في أوَّل الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس[3]. وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ ما يتعلَّق بذلك.

وآيُها ثماني عشرة آية في المدني الأخير، وتسع عشرة في البصري، وعشرون فيما عداهما.

ولمَّا ختم سبحانه سورة الجنِّ بذِكْر الرسل عليهم الصلاة والسلام افتتح عزَّ وجلَّ هذه بما يتعلَّق بخاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام وهو وجهٌ في المناسبة.

وفي «تناسق الدرر»: لا يخفى اتِّصال أوَّلها: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ إلخ بقوله تعالى في آخر تلك: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الآية: ١٩] وبقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الآية ١٨][4].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٢٤.

(٢) ٨/ ٣٦٠.

(٣) الإتقان ١/ ٥٢.

(٤) تناسق الدرر للسيوطي ص٨٩.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾ أي: المُتَزَمِّل، مِن تَزَمَّل بثيابه: إذا تلفَّف بها، فأدغم التاء في الزاي، وقد قرأ أُبَيٌّ على الأصل[١]، وعكرمة: «المُزَمِّل» بتخفيف الزاي وكسر الميم[٢]، أي: المُزَمِّل جسمَه أو نفسَه، وبعض السلف: «المُزَمَّل» بالتخفيف وفتح الميم[٣] اسم مفعول، ولا تَدافُع بين القراءات؛ فإنَّه عليه الصلاة والسلام هو زمَّل نفسَه الكريمة مِن غير شبهة، لكن إذا نظر إلى أنَّ كلَّ أفعاله مِن الله تعالى فقد زمَّله غيرُه، ولا حاجةَ إلى أن يقال: إنَّه ﷺ زمَّل نفسه أوَّلاً، ثم نام فزمَّله غيره، أو: إنَّه زمَّله غيرُه أوَّلاً، ثم سقط عنه ما زُمِّل به فزمَّل هو نفسه.

والجمهور على أنَّه ﷺ لما جاءه الملَك في غار حراء وحاوره بما حاوره، رجع إلى خديجة رضي الله عنها فقال: زمِّلوني زمِّلوني. فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وعلى إثرها نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

وأخرج البزار والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الدلائل» عن جابر رضي الله عنه، قال: لما اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سَمُّوا هذا الرجل اسماً تَصْدُر الناس عنه. فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر. قالوا: ليس بساحر. قالوا: يُفرِّق بين الحبيبِ وحبيبه. فتفرَّق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فتزمَّل في ثيابه وتدثَّر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[٤].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٣، والمحتسب ٢/ ٣٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.

(٣) تفسير القرطبي ٢١/ ٣١٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٧٦، والبزار (٢٢٧٦ - كشف الأستار)، والأوسط للطبراني (٢٠٩٦)، ولم نقف عليه بهذا اللفظ في مطبوع الدلائل.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٠: فيه: معلى بن عبد الرحمن الواسطي، وهو كذاب.

ونداؤه عليه الصلاة والسلام بذلك تأنيسٌ له وملاطفة على عادة العرب في اشتقاق اسمٍ للمخاطب مِن صفته التي هو عليها، كقوله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه حين غاضَبَ فاطمةَ ﵂، فأتاه وهو نائم وقد لصقَ بجِنْبه التراب: «قُمْ أبا تُراب»[١] قصداً لرَفْع الحجاب وطَيِّ بساط العتاب، وتنشيطاً له ليتلقَّى ما يَردُ عليه بلا كسل:

وكلُّ ما يفعل المحبوبُ محبوبُ[٢]

وزعم الزمخشري أنَّه عليه الصلاة والسلام نُوديَ بذلك؛ تهجيناً للحالة التي عليها من التزمُّل في قطيفةٍ واستعدادِه للاستثقال في النوم، كما يفعل مَن لا يهمه أمر ولا يَعْنيه شأنٌ[٣]. إلى آخر ما قال ممَّا ينادى عليه ـ كما قال الأكثرون ـ بسوء الأدب، ووافقه في بعضه مَن وافقه. وقال صاحب «الكشف»: أراد أنَّه عليه الصلاة والسلام وُصفَ بما هو متلبِّس به يُذكِّره تقاعده، فهو من لطيف العتاب الممزوج بمحضِ الرأفة، ولينشطه ويجعله مستعدًّا لما وعده تعالى بقوله سبحانه: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) ولا يربأ برسول الله ﷺ عن مثلِ هذا النداء، فقد خوطب بما هو أشدُّ في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] ومثل هذا من خطاب الإدلال والترؤُّف لا يتقاعد ما في ضمنه من البِرِّ والتقريب عمَّا في ضمن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ من التعظيم والترحيب. انتهى.

ولا يخفى أنَّه لا يندفع به سوءُ أدب الزمخشريِّ في تعبيرِه، فإنه تعالى وإن كان له أن يخاطبَ حبيبَه بما شاء، لكنَّا نحن لا نَجرؤ على ما عامله سبحانه به، بل يَلزمنا الأدب والتعظيم لجنابه الكريم، ولو خاطب بعضُ الرعايا الوزيرَ بما خاطبه به السلطانُ، طردَه الحجَّاب، وربَّما كان العقابُ هو الجوابَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سهل بن سعد ﵁.

(٢) عجز بيت للمهيار الديلمي، وهو في المدهش لابن الجوزي ص٢٧٦، وصدره:

أرضى وأسخط أو أرضى تلوُّنه

(٣) الكشاف ٤/ ١٧٤.

وقيل: كان ﷺ متزمِّلاً بمِرْطٍ لعائشة رضي الله عنها يُصلِّي، فنوديَ بذلك ثناءً عليه وتحسيناً لحاله التي كان عليها. ولا يأباه الأمرُ بالقيام بَعْدُ، إمَّا لأنَّه أمرٌ بالمداومة على ذلك والمواظبة عليه، أو تعليم له عليه الصلاة والسلام وبيان لمقدارِ ما يقوم على ما قيل. نعم أورد عليه أنَّ السورةَ مِن أوائل ما نزل بمكَّة، ورسول الله ﷺ إنَّما بَنَى على عائشة رضي الله عنها بالمدينة، مع أنَّ الأخبار الصحيحة متضافرةٌ بأنَّ النداء المذكور كان وهو عليه الصلاة والسلام في بيت خديجة رضي الله عنها، ويعلم منه حالِ ما روي عن عائشة أنَّها سُئلت: ما كان تزميله ﷺ؟ قالت: كان مِرْطاً طوله أربع عشرة ذراعاً، نصفه عليَّ وأنا نائمة، ونصفه عليه وهو يُصلِّي، وكان سَدَاه شَعَراً، ولُحْمَتُه وَبَراً.

وتكلَّف صاحب «الكشف» فقال: الجواب أنَّه عليه الصلاة والسلام عَقَد في مكَّة[١]، فلعلَّ المِرْطَ بعد العقد صار إليه ﷺ، نعم دلَّ على أنَّه بعد وفاة خديجة، إنَّما الإشكال في قول عائشة: نصفه عليَّ.. إلخ، وجوابه: أنَّه يمكن أن يكون قد باتَ ﷺ في بيت الصِّدِّيق رضي الله عنه ذاتَ ليلة، وكان المِرْطُ على عائشة وهي طفلة، والباقي لطوله على النبيِّ عليه الصلاة والسلام، فحَكَت ذلك أمُّ المؤمنين، إذ لا دلالةَ على أنَّها حكاية ما بعد البناء، فهذا ما يتكلَّف لصحَّة هذا القول. انتهى.

وأنتَ تعلم أنَّ هذا الحديث لم يقع في الكتب الصحيحة، كما قاله ابنُ حجر[٢]، بل هو مخالف لها، ومثل هذه الاحتمالات لا يكتفى بها، بل قال أبو حيَّان: إنَّه كذب صريحٌ[٣].

وعن قتادة: كان ﷺ قد تزمَّل في ثيابه للصلاة واستعدَّ لها، فنودي بـ «يا أيُّها المزمِّل» على معنى: يا أيُّها المستعدُّ للعبادة. وقال عكرمة: المعنى: يا أيُّها المزمِّل للنبوَّة وأعبائِها.

---

(١) جاء في هامش الأصل: قبل الهجرة بثلاث سنين، فلا تغفل. انتهى منه.
(٢) في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٦٠.

والزِّمْل كالحِمْل لفظاً ومعنًى، ويقال: ازدَمَله، أي: احتمله. وفيه تشبيهُ إجراءِ مراسم النبوَّة بتحمُّل الحِمْل الثقيل؛ لما فيهما من المشقَّة. وجوّز أن يكون كنايةً عن المتثاقِل؛ لعدم التمرُّن، وأورد عليه نحو ما أُورد على وجه الزمخشريِّ، ومع صحَّة المعنى الحقيقي واعتضاده بالأحاديث الصحيحة لا حاجةَ إلى غيره، كما قيل.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ أي: قم إلى الصلاة، وقيل: داوم عليها. وأيًّا ما كان فمعمول «قم» مقدَّر، و«الليلَ» منصوبٌ على الظرفيَّة، وجوّز أن يكون منصوباً على التوسُّع والإسناد المجازيّ، ونسب هذا إلى الكوفيين، وما قَبْلُ[(١)] إلى البصريين، وقيل: القيام مستعارٌ للصلاة، ومعنى «قم»: صَلِّ، فلا تقدير.

وقرأ أبو السمَّال بضمِّ الميم؛ إتْباعاً لحركة القاف، وقرئ بفتحها[(٢)]؛ طلباً للتخفيف، والكسر في قراءة الجمهور على أصل التقاء الساكنين.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ استثناء من «الليل»، وقوله تعالى: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلٌ من «قليلاً» بدل الكُلِّ، والضمير للَّيل، وفي هذا الإبدال رَفْعُ الإبهام، وفي الإتيان بقليل ما يدلُّ على أنَّ النصفَ المغمورَ بذِكْر الله تعالى بمنزلة الكُلِّ، والنصف الفارغ وإن ساواه في الكميَّة لا يُساويه في التحقيق.

﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ عطف على الأمر السابق، والضمير المجرور للَّيل أيضاً مقيَّداً بالاستثناء؛ لأنَّه الذي سيق له الكلام، وقيل: للنصف[(٣)]؛ لقُربه ﴿قَلِيلًا ۝٣﴾ أي: نقصاً قليلاً، أو: مقداراً قليلاً، بحيث لا ينحطُّ عن نصفِ النصف.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ عطف كما سبق، وكذا الكلام في الضمير، ولا يختلف المعنى على القولين فيه، وهو تخييره ﷺ بين أن يقومَ نصفَ الليل، أو أقلَّ مِن النصف، أو أكثر[(٤)]، بيد أنَّه رجّح الأوَّل بأنَّ فيه جَعْلَ معيارِ النقص والزيادةِ النصفَ المقارنَ للقيام، وهو أَولى مِن جعله النصف العاري منه بالكليَّة وإن تساويا كميَّةً، وجعل

---

(١) في (م): وما قيل.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٤، والمحتسب ٢/ ٣٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٠.
(٤) جاء في هامش الأصل: بمقدار ما تنبسط به النفس وتنشط للتهجد. انتهى منه.

بعضهم[١] الإبدال من الليل الباقي بعد الثنيا، والضميرين له، وقال في الإبدال مِن «قليل» ليس بسديد. لهذا، ولأنَّ الحقيقَ بالاعتناء الذي يُنبئُ عنه الإبدال هو الجزء الباقي بعد الثنيا المقارنُ للقيام، لا الجزءُ المخرج العاري عنه. ولا يخفى أنَّه على طرف الثمام.

وكذا اعترض أبو حيَّان[٢] ذلك الإبدال بقوله: إنَّ ضمير «نصفه» حينئذٍ إمَّا أن يعود على المبدَل منه، أو على المستثنى منه وهو «الليل»، لا جائزٌ أن يعودَ على المبدَل منه؛ لأنَّه يكون استثناءَ مجهول من مجهول، إذ التقدير: إلا قليلاً نصف القليل، وهذا لا يصحُّ له معنًى البتة، ولا جائز أن يعودَ على المستثنى منه؛ لأنَّه يلغو فيه الاستثناء، إذ لو قيل: قم الليل نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه، أفاد معناه على وجهٍ أَخْصَرَ وأوضح، وأبعد عن الإلباس.

وفيه: أنَّا نختار الثاني، وما زعمه مِن اللَّغْويَّة قد أشرنا إلى دفعه، وأوضحه بعضُ الأجلَّة بقوله: إنَّ فيه تنبيهاً على تخفيف القيام وتسهيله؛ لأنَّ قلَّة أحد النصفين تلازمُ قلَّة الآخَر، وتنبيهاً على تفاوت ما شغل بالطاعة وما خلا منها لإشعاره[٣] بأنَّ البعضَ المشغول بمنزلة الكُلِّ، مع ما في ذلك مِن البيان بعد الإبهام، الداعي للتمكُّن في الذهن وزيادة التشويق.

وتعقَّب السمينُ الشِّقَّ الأوَّل أيضاً بأنَّ قوله: استثناء مجهولٍ من مجهول، غيرُ صحيح؛ لأنَّ الليل معلوم، وكذا بعضُه مِن النصف وما دونَه وما فوقه، ولا ضيرَ في استثناء المجهول مِن المعلوم، نحو: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٢٤٩] بل لا ضيرَ في إبدال مجهولٍ من مجهول كـ : جاءني جماعةٌ بعضهم مشاة[٤]. ومع هذا المعوَّلُ عليه ما سلف.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٩/ ٥٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦١.

(٣) في الأصل: لإشعار، وفي (م): الإشعار، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٣، والكلام منه.

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٣، وينظر الدر المصون ١٠/ ٥١٣-٥١٤.

وجوّز أن يكون «نصفه» بدلاً مِن «الليل» بدل بعضٍ مِن كُلٍّ، والاستثناء منه، والكلام على نيَّة التقديم والتأخير، والأصل: قُم نصفَ الليل إلا قليلاً، وضمير «منه» و«عليه» للأقلِّ من النصف المفهوم مِن مجموع المستثنى والمستثنى[1] منه، فكأنَّه قيل: قُم أقلَّ مِن نصفِ الليل، بأنْ تقوم ثلثَ الليل، أو انقص مِن ذلك الأقلِّ قليلاً، بأنْ تقومَ ربعَ الليل، أو زد على ذلك الأقلِّ بأنْ تقومَ النصفَ، فالتخيير على هذا بين الأقلِّ مِن النصف والأقلِّ مِن الأقلِّ والأزيد منه وهو النصف بعينه، ومآله إلى التخيير بين النصف والثلث والربع، فالفرق بين هذا الوجه وما ذُكر قَبْلُ مثلُ الصبح ظاهر.

وفي «الكشاف» ما يفهم منه ـ على ما قيل ـ أنَّ التخيير فيما وراء النصف[2]. أي: فيما يقلُّ عن النصف ويزيد على الثلث، فلا يبلغ بالزيادة النصف ولا بالنقصان الثلث.

قال في «الكشف»: وإنَّما جعل الزيادة دون النصفِ، والنقصانَ فوقَ الثلث؛ لأنَّهما لو بلغا إلى الكسر الصحيح لكان الأشبه أن يُذكَرا بصريح اسمَيْهما، وأيضاً إيثار القلَّة ثانياً دليل على التقريب مِن ذلك الأقلِّ، وما انتهى إلى كسر صحيح فليس بناقص قليل في ذوق هذا المقام، وكذا القول في جانب الزيادة، كيف وقد بنى الأمرَ على كونه أقلَّ مِن النصف. انتهى. وهو وجه متكلَّف، ونحوُه ـ فيما أرى ـ ما سمعتَ قبيله. وظاهر كلام بعضهم أنَّ ذِكْر الثلث والربع والنصف فيه على سبيل التمثيل، لا أنَّ الأقلَّ والأنقص والأزيد محصورات فيما ذكر.

وجوّز أيضاً كون الكلام على نيَّة التقديم والتأخير كما مرَّ آنفاً، لكن مع جعل الضميرين للنصف لا للأقلِّ منه كما في ذلك، والمعنى: التخيير بين أمرين: بين أن يقوم عليه الصلاة والسلام أقلَّ مِن نصف الليل على البتِّ، وبين أن يختارَ أحدَ الأمرَيْن وهما النقصان مِن النصف والزيادةُ عليه، فكأنَّه قيل: قُم أقلَّ مِن نصف

(١) قوله: والمستثنى، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٢٦٤.
(٢) الكشاف ٤/ ١٧٥.

الليل على البتِّ، أو انقص مِن النصف، أو زد عليه تخييراً، قيل: وللاعتناء بشأن الأقلِّ ـ لأنَّه الأصلُ الواجب ـ كُرِّر، على نحو: أكرم إمَّا زيداً وإمَّا زيداً أو عَمْراً.

وتعقِّب بأنَّ فيه تكلُّفاً؛ لأنَّ تقديم الاستثناء على البدل ظاهر في أنَّ البدل مِن الحاصل بعد الاستثناء؛ لأنَّ في تقدير تأخير الاستثناء عدولاً عن الأصل من غير دليل، ولأنَّ الظاهر على هذا رجوعُ الضميرين إلى النصف بعد الاستثناء ـ لأنَّه السابق ـ لا النصفِ المطلق، وأيضاً الظاهر أنَّ النقصانَ رخصةٌ؛ لأنَّ[1] الزيادة نفل، والاعتناء بشأن العزيمة أولى. ثم فيه أنَّه لا يجوز قيامُ النصف، ويردُّه القراءةُ الثابتة في السبعة: «إنَّ ربَّك يَعلم أنَّك تقومُ أدنى مِن ثلثي الليل ونصفِه وثلِثه» بالجرِّ[2]، فإن استدل مِن جواز الأقلِّ على جوازه لمفهوم الموافقة، لزم أن يلغو التعرُّض للزيادة على النصف لذلك أيضاً، ولا يخفى أن بعضَ هذا يَرِدُ على الوجه المارِّ آنفاً.

واعتُرض قوله: الظاهر أنَّ النقصانَ رخصةٌ. بأنَّه محلُّ نظر، إذ الظاهر أنَّه مِن قبيل: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧] فالتخيير ليس على حقيقته. وفيه بحث.

وجوّز أيضاً كون الإبدال مِن «قليلاً» كما قدَّمنا أوَّلاً لكن مع جَعْلِ «قليلاً» الثاني بمعنى نصفِ النصف وهو الربع، وضمير «عليه» لهذا القليل، وجَعْلِ المزيد على هذا القليل ـ أعني: الربع ـ نصفَ الربع، كأنَّه قيل: قم نصفَ الليل، أو انقص مِن النصف قليلاً نصفَه، أو زد على هذا القليل قليلاً نصفَه، ومآله: قم نصفَ الليل، أو نصفَ نصفه، أو زد على نصف النصف نصفَ نصفِ النصف، فيكون التخييرُ فيما إذا كان الليلُ ستَّ عشرة ساعة مثلاً بين قيام ثماني ساعات وأربعٍ وستٍّ. ولا يخفى أنَّ الإطلاقَ في: «أو زد عليه» ظاهر الإشعار بأنَّه غيرُ مقيَّد بـ «قليلاً»، إذ لو كان للاستغناء لاكتفي في: «أوِ انْقُص» إلخ بالأوَّل أيضاً، ومِن هنا قيل: يجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمَّة للثلث، فيكون التخيير بين النصف

(١) كذا في الأصل و(م): لأن، وفي حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٤: لا أن.
(٢) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣. ونصب الفاء والثاء قراءة الكوفيين وابن كثير.

والثلث والربع، وفيه أنَّ جعلها تتمَّة الثلث لا دليلَ عليه سوى موافقة القراءة بالجرِّ في «نصفِه وثلثه» بَعْدُ.

وجوَّز الإمام أن يُراد بـ «قليلاً» في قوله تعالى: «إلا قليلاً» الثلث، وقال: إنَّ «نصفه» على حذف حرف العطف، فكأنه قيل: [قم] ثلثي الليل، أو: قم نصفه أو انقص مِن النصف، أو زد عليه[1]. وأطال في بيان ذلك، والذبِّ عنه، ومع ذلك لا يَخفى حاله. وذَكَر أيضاً وجهاً ثانياً لا يَخفى أمره على مَن أحاط بما تقدَّم خبراً، نعم تفسيره القليل بالثلث مرويٌّ عن الكلبي ومقاتل، وعن وهب بنِ منبه تفسيره بما دون المِعْشار والسدس، وهو على ما قدَّمنا نصف، واستدلَّ به من قال بجواز استثناء النصف وما فوقَه على ما فصِّل في الأصول.

وقال التبريزيُّ: الأَمْرُ بالقيام والتخييرُ في الزيادة والنقصان وقع على الثلثين مِن آخِر الليل؛ لأنَّ الثلث الأوَّل وقتُ العَتَمَة، والاستثناءُ واردٌ على المأمور به، فكأنَّه قيل: قُم ثلثي الليل إلا قليلاً، ثم جعل «نصفه» بدلاً من «قليلاً»، فصار القليل مفسَّراً بالنصف من الثلثين، وهو قليلٌ على ما تقدَّم، أو انقص منه، أي: من المأمور به، وهو قيام الثلثين قليلاً، أي: ما دون نصفه، أو زد عليه، فكان التخيير في الزيادة والنقصان واقعاً على الثلثين. انتهى. وهو كما ترى!

وقيل: الاستثناء من أعداد الليل لا مِن أجزائه، فإنَّ تعريفه للاستغراق، إذ لا عهدَ فيه، والضمير راجع إليه باعتبار الأجزاء على أنَّ هناك استخداماً أو شبهه، والتخيير بين قيام النصف والناقص عنه والزائد عليه. وهو بمكان مِن البُعْد.

وبالجملة قد أكثر المفسِّرون الكلامَ في هذه الآية حتى ذكروا ما لا ينبغي تخريجُ كلام الله تعالى العزيز عليه، وأظهر الوجوه عندي، وأَبعدُها عن التكلُّف، وأليقُها بجزالة التنزيل، هو ما ذكرناه أَوَّلاً، والله تعالى أعلم بما في كتابه الجليل الجزيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّق بالأمر في قوله سبحانه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ إلخ.

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٧٢-١٧٣، وما سلف بين حاصرتين منه، واستدل الإمام لهذا القول بما سيأتي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: في أثناء ما ذُكرَ من القيام، أي: اقرَأْهُ على تُؤَدةٍ وتمهُّل وتبيينِ حروف ﴿تَرْتِيلًا ۝٤﴾ بليغاً بحيث يتمكَّن السامع مِن عدِّها، مِن قولهم: ثَغْرٌ رَتْلٌ بسكون التاء، ورَتِلٌ بكسرها: إذا كان مفلَّجاً لم تتَّصل أسنانه بعضها ببعض. وأخرج العسكريُّ في «المواعظ» عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه: أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئلَ عن هذه الآية، فقال: «بيِّنه تبييناً، ولا تَنْثره نَثر الدَّقَل، ولا تَهذّه هذَّ الشعر، قِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوبَ، ولا يكن هَمّ أحدكم آخِر السورة»(١).

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾ أي: سنوحي إليك، وإيثار الإلقاء عليه؛ لقوله تعالى ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ وهو القرآن العظيم، فإنَّه لِمَا فيه من التكاليف الشاقَّة ثقيلٌ على المكلَّفين سيَّما على الرسول ﷺ فإنَّه عليه الصلاة والسلام مأمور بتحمُّلها وتحميلها للأمَّة. وهذه الجملة المؤكَّدة معترضةٌ بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي؛ لتسهيل ما كُلِّفه عليه الصلاة والسلام مِن القيام، كأنَّه قيل: إنَّه سيردُ عليك في الوحي المنزل عليك(٢) تكاليف شاقَّة، هذا بالنسبة إليها سهلٌ، فلا تُبالِ بهذه المشقَّة وتمرَّن بها لما بعدها، وأدخل بعضهم في الاعتراض جملة «ورتِّل» إلخ، وتعقِّب بأنَّه لا وجهَ له.

وقيل: معنى كونه «ثقيلاً» أنَّه رصينٌ؛ لإحكام مبانيه ومتانة معانيه، والمراد أنَّه راجحٌ على ما عداه لفظاً ومعنًى، لكن تجوِّز بالثقيل عن الراجح؛ لأنَّ الراجح مِن شأنه أن يكون كذلك. وفي معناه ما قيل: المراد كلامٌ له وزنٌ ورجحانٌ ليس بالسَّفْساف. وقيل: معناه أنَّه ثقيل على المتأمِّل فيه؛ لافتقاره إلى مزيد تصفيةٍ للسِّرِّ وتجريد للنظر، فالثقيل مجازٌ عن الشاقِّ.

وقيل: ثقيلٌ في الميزان، والثِّقَل إمَّا حقيقة أو مجاز عن كثرةِ ثوابِ قارئه.

وقال أبو العالية والقرطبيُّ: ثقله على الكفَّار والمنافقين بإعجازه ووعيده(٣).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٧، ولم نقف عليه عند غيره، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٥٢١، والآجري في أخلاق حملة القرآن وأهله (١) عن ابن مسعود موقوفاً. والهذ: سرعة القراءة بغير تأمُّل. وقوله: نثر الدقل، أي: كما يتساقط الرطب الرديء اليابس من العِذْق إذا هُزَّ.

(٢) ليست في (م).

(٣) البحر ٨/ ٦٢، وقوله: القرطبي، كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، ومطبوع المحرر =

وقيل: ثقيلٌ تلقِّيه، يعني يثقل عليه ﷺ [نزوله][(١)] والوحي به بواسطة المَلَك، فإنَّه كان يُوحى إليه عليه الصلاة والسلام على أنحاء، منها: أن لا يتمثَّل له المَلَك ويخاطبه، بل يَعرِض له عليه الصلاة والسلام [حالٌ][(٢)] كالغشي؛ لشدَّة انجذاب روحه الشريفة للمَلأ الأعلى، بحيث يَسمع ما يُوحى به إليه ويشاهده ويحسُّه هو عليه الصلاة والسلام دون مَن معه، وفي هذه الحالة كان يحسُّ في بدنه ثِقَلاً حتى كادت فَخِذُه ﷺ أن ترضَّ فخذَ زيد بنِ ثابت وقد كانت عليها، وهو يُوحى إليه[(٣)].

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابنُ جرير وابنُ نصر والحاكم وصحَّحه عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها فما تستطيع أن تتحرَّك حتى يُسرَّى عنه، وتَلَتْ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[(٤)].

وروى الشيخان ومالك والترمذيُّ والنسائيُّ عنها أنَّها قالت: ولقد رأيتُه يَنزلُ عليه الوحي في اليوم الشديد البَرْد فيُفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَه ليَتفصَّد عَرَقاً[(٥)].

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون «ثقيلاً» صفةً لمصدرٍ حُذف، فأُقيم مقامه، وانتصب انتصابه، أي: إلقاءً ثقيلاً، وليس صفة «قولاً».

وقيل: ذلك كناية عن بقائه على وجه الدهر؛ لأنَّ الثقيلَ مِن شأنه أن يبقى في مكانه.

= الوجيز ٥/ ٣٨٧، ولعل الصواب: القرظي. وجاء في تفسير البغوي ٤/ ٤٠٨، والقرطبي ٢١/ ٣٢٤: قال أبو العالية: ثقيل بالوعد والوعيد والحلال والحرام. وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين.

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٥.

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٥.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٩٢) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ضمن حديث طويل.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٧٨، وهو عند أحمد (٢٤٨٦٨)، والحاكم ٢/ ٥٠٥ عن عائشة رضي الله عنها، وعند الطبري في التفسير ٢٣/ ٣٦٥ عن هشام بن عروة، عن أبيه، مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٧: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. اهـ. والجِران: الصدر.

(٥) البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣)، ومالك ١/ ٢٠٢-٢٠٣، والترمذي (٣٦٣٤)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٤٧-١٤٩.

وقيل: ثِقَله باعتبار ثِقَل حروفِه حقيقةً في اللوح المحفوظ، فعن بعضهم أنَّ كلَّ حرف مِن القرآن في اللوح أعظمُ مِن جبل قاف، وأنَّ الملائكةَ لو اجتمعت على الحرف أن يُقِلُّوه ما أطاقوه حتى يأتي إسرافيل عليه السلام - وهو مَلَك اللَّوح - فيرفعه ويقلّه بإذن الله تعالى لا بقوَّته، ولكن اللهَ عزَّ وجلَّ طوَّقه ذلك. وهذا ممَّا يحتاج إلى نقل صحيح عن الصادق عليه الصلاة والسلام، ولا أظنُّ وجودَه.

والجملة - قيل على معظم هذه الأوجه - مستأنفةٌ للتعليل؛ فإنَّ التهجُّد يُعِدُّ النَّفْسَ لأنْ تُعالجَ ثِقَله، فتأمَّل.

واستدلَّ بالآية على أنَّه لا ينبغي أن يقال: سورة خفيفة؛ لما أنَّ الله تعالى سمَّى فيها القرآنَ كلَّه قولاً ثقيلاً، وهذا من باب الاحتياط كما لا يخفى.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: إنَّ النَّفس التي تنشأ مِن مضجِعها إلى العبادة، أي: تنهض، مِن نَشَأ مِن مكانه ونَشَر: إذا نهض، وأنشد قوله:

نَشَأْنا إلى خُوصٍ بَرَى نَيَّها السُّرَى ... وأَشْرف منها مُشْرِفاتِ القَماحِدِ(١)

وظاهرُ كلام اللغويين أنَّ نَشَأَ بهذا المعنى لغةٌ عربيَّة، وقال الكرمانيُّ في «شرح البخاريِّ»: هي لغة حبشيَّة عرَّبوها(٢). وأخرج جماعة نحوه عن ابن عباس وابن مسعود(٣)، وحكاه أبو حيَّان عن ابن جبير وابن زيد، وجعل «ناشئة» جمع: ناشئ، فكأنَّه أراد النفوس الناشئة، أي: القائمة، ووجه الإفراد ظاهر، والإضافة إمَّا بمعنى «في»، أو على نحو: سِيْدُ غضاً. وهذا أبلغ.

---

(١) البيت في الكشاف ٤/ ١٧٦، وتفسير البيضاوي ٦/ ٢٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣، وحاشية الشهاب ٨/ ٢٦٥ وقال: البيت لا أعرف صاحبه، وقوله: نشأنا: بمعنى قمنا ونهضنا. وخوص: جمع خوصاء وهي الناقة الغائرة العينين من الهزال. وبرى: بمعنى أذهب، ونيّها: شحمها، والقماحد: جمع قَمَحْدُوة، وهي ما خلف الرأس. يقول: قمنا إلى نياق هزلت من كثرة السير. اهـ. والبيت ذكره أبو البقاء الكفوي في الكليات ص٥٠٥ بلفظ:

نشأنا على حرف برى متنها السُّرى ... وألصق منها لابتيها القماحد

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٥، وكلام الكرماني في شرح البخاري ٦/ ١٩٥.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٧٨.

أو: إنَّ قيام الليل، على أنَّ الناشئة مصدر نشأ بمعنى قام كالعاقبة، وإسنادها إلى الليل مجاز، كما يقال: قام ليله وصام نهاره. وخصَّ مجاهد هذا القيام بالقيام مِن النوم، وكذا عائشة، ومنعت أن يُراد مُطلَقُ القيام، وكأنَّ ذلك بسبب أنَّ الإضافة إلى الليل في قولهم: قيام الليل، تُفهِم القيام مِن النوم فيه، أو القيام وقت النوم، لمن قال: الليل كلّه.

أو: إنَّ العبادة التي تنشأ ـ أي: تَحدُث ـ بالليل، على أنَّ الإضافة اختصاصيَّة،أو بمعنى «في»، أو على نحو: ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال ابن جبير وابن زيد وجماعة: ناشئةُ الليلِ: ساعاتُه؛ لأنَّها تَنشأ، أي: تَحدُث واحدةً بعد واحدة، أي: متعاقبةً، والإضافة عليه اختصاصيَّة. أو: ساعاته الأُوَل، من نَشَأ: إذا ابتدأ. وقال الكسائيُّ: ناشئتُه: أوَّلُه. وقريب منه ما روي عن ابنِ عمر وأنس بنِ مالك وعليِّ بنِ الحسين ﷺ: هي ما بين المغرب والعشاء.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: هي خاصَّة دون ناشئة النهار أشدُّ مواطأة، يُواطئُ قلبُها لسانَها إن أُريد بالناشئة النفسُ المتهجِّدة، أو: يواطئُ فيها قلبُ القائم لسانَه إن أُريد بها القيام أو العبادة أو الساعات، والإسناد على الأوَّل حقيقيٌّ، وعلى هذا مجازيٌّ، واعتبار الاستعارة المكنيَّة ليس بذاك، أو أشدُّ موافقة لما يُراد من الإخلاص، فلا مجاز على جميع المعاني.

وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد والعربيَّان: «وِطَاءً» بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً[(١)]، على أنَّه مصدر وَاطأ وِطَاءً كقاتل قِتالاً.

وقرأ قتادة وشبل عن أهل مكَّة بكسر الواو وسكون الطاء والهمز مقصوراً[(٢)]، وقرأ ابن محيصن بفتح الواو ممدوداً[(٣)].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦٢.

(٢) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي: وأسدُّ[١] مقالاً، أو: أثبتُ قراءةً لحضور القلب وهدوء الأصوات، و«قيلاً» عليهما مصدر، لكنَّه على الأوَّل عامٌّ للأذكار والأدعية، وعلى الثاني مخصوص بالقراءة، ونصبه ونصب «وطأ» على التمييز.

وأخرج ابنُ جرير وغيره عن أنس بنِ مالك أنَّه قرأ: «وأَصْوبُ قيلاً»، فقال له رجل: إنَّا نقرؤها: «وأقوم قيلاً»؟ فقال: إنَّ أصْوب وأَقْوم وأهْيأ وأشباه هذا واحد[٢].

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ أي: تقلُّباً وتصرُّفاً في مهماتك واشتغالاً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرَّغ للعبادة فعليك بها في الليل.

وأصل السَّبْحِ: المَرُّ السريع في الماء، فاستعير للذهاب مطلقاً كما قاله الراغب[٣]، وأنشدوا قول الشاعر:

أباحوا لكم شَرْقَ البلاد وغربَها ... ففيها لكم يا صاحِ سَبْحٌ مِن السَّبْحِ[٤]

وهذا بيانٌ للداعي الخارجي إلى قيام الليل بعد بيان ما في نفسه مِن الداعي.

وقيل: أي: إنَّ لك في النهار فراغاً وسَعَةً لنومك وتصرُّفك في حوائجك.

وقيل: إنْ فاتك مِن الليل شيء فَلَكَ في النهار فراغ تَقدِر على تداركه فيه، فالسَّبْح الفراغُ، وهو مستعمل في ذلك لغة أيضاً، لكنَّ الأوَّل أوفق لمعنى قولهم: سبح في الماء، وأنسب للمقام، ثم إنَّ الكلام على هذا إمَّا تتميم للعلَّة يهوّن عليه أنَّ النهار يصلح للاستراحة فليغتنم الليلَ للعبادة وليشكر أنْ لم يُكلَّف استيعابهما بالعبادة، أو تأكيد للاحتفاظ به، بأنَّه إن فات لا بُدَّ مِن تداركه بالنهار، ففيه متَّسع لذلك، وفيه تلويح إلى معنى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢].

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٧٣، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٠٢٢)، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٤، والقراءة في المحتسب ٢/ ٣٣٦، والكشاف ٤/ ١٧٦.
(٣) المفردات (سبح).
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

وقرأ ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة: «سَبْخاً» بالخاء المعجمة[(١)]، أي: تفرُّقَ قلب بالشواغل، مستعارٌ مِن سبخ الصوفِ: وهو نفشه[(٢)] ونَشْر أجزائه. وقال غير واحد: خفَّة من التكاليف. قال الأصمعيُّ: يقال: سبَّخ اللهُ تعالى عنك الحمَّى: خفَّفها. وفي الحديث: «لا تُسبِّخي بدعائك»[(٣)]، أي: لا تخفِّفي، ومنه قوله:

فَسَبِّخْ عليكَ الهَمَّ واعْلَم بأنَّه ... إذا قدَّر الرحمنُ شيئاً فكائنُ[(٤)]

وقيل: السبخ: المَدُّ، يقال: سبِّخي قطنك، أي: مُدِّيْه، ويقال لقِطَع القطن: سبائخ، الواحدة: سَبخة، ومنه قول الأخطل يصف قُنَّاصاً وكِلاباً:

فَأَرْسَلُوهُنَّ يُذْرِينَ الترابَ كما ... يُذْرِي سبائخَ قُطْنٍ نَدْفُ أوتار[(٥)]

وقال صاحب «اللوامح»: إنَّ ابنَ يعمر وعكرمةَ فسَّرا «سبخاً» بالمعجمة بعد أن قرأا به فقالا: معناه: نوماً، أي: ينام بالنهار ليستعينَ به على قيام الليل، وقد تحتمل هذه القراءة غير هذا المعنى، لكنَّهما فسَّراها فلا نتجاوز عنه[(٦)]. اهـ. ولعلَّ ذلك تفسير باللازم.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: وَدُمْ على ذِكْره تعالى ليلاً ونهاراً على أيِّ وجه كان مِن تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك، وفسّر الأمر بالدوام؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لم ينسه تعالى حتى يُؤمَر بذِكْره سبحانه، والمراد الدوام

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

(٢) في (م): نقشه.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٧)، وأحمد (٢٤١٨٣) عن عائشة رضي الله عنها، بلفظ: «لا تُسبِّخي عنه»، وفي إسناده حبيب بن أبي ثابت، قال عنه العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٦٣: له أحاديث لا يتابع عليها. وذكر منها هذا الحديث.
وهو عند ابن سلام في غريب الحديث ١/ ٣٣، وابن الأثير في النهاية (سبخ) بلفظ: «لا تُسبِّخي عنه بدعائك عليه».

(٤) البيت ذكره الجوهري في الصحاح، وابن منظور في اللسان (سبخ).

(٥) ديوان الأخطل ص١١٥.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

العرفيُّ لا الحقيقيُّ، لعدم إمكانه، ولأنَّ مقتضى السياق أنَّ هذا تعميم بعد التخصيص، كان المعنى على ما سمعت مِن اعتبار ليلاً ونهاراً.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي: وانقطع إليه تعالى بالعبادة، وجرِّد نفسك عمَّا سواه عزَّ وجلَّ، واستغرق في مراقبته سبحانه، وكأنَّ هذا أمر بما يتعلَّق بالباطن بعد الأمر بما يتعلَّق بالظاهر، ولتأكيد ذلك قال سبحانه: ﴿تَبْتِيلًا ۝٨﴾ ونصبه بـ «تبتَّل» لتضمُّنه معنى بَتل، على ما قيل، وقد تقدَّم الكلام في تحقيق ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فتذكَّر فما في العهد مِن قدم، وكيفما كان الأمر ففيه مراعاة الفواصل.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مرفوع على المدح. وقيل: على الابتداء، خبره: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «رَبَّ» بالنصب[1] على الاختصاص والمدح، وهو يؤيِّد الأوَّل، وقرأ الأخوان وابنُ عامر وأبو بكر ويعقوب: «رَبِّ» بالجرِّ[2] على أنَّه بدل من «ربِّك»، وقيل: على إضمار حرف القَسَم، وجوابه: «لا إله إلا هو»، وفيه حذف حرف القَسَم مِن غير ما يسدُّ مسدَّه وإبقاءُ عمله، وهو ضعيف جدًّا كما بيِّن في العربية، وقد نقل هذا عن ابن عباس، وتعقَّبه أبو حيَّان بقوله: لعلَّه لا يصحُّ عنه؛ إذ فيه إضمار الجارِّ في القَسَم، ولا يجوز عند البصريين إلا في لفظة الجلالة الكريمة نحو: اللهِ لأفعلنَّ كذا، ولا قياسَ عليه، ولأنَّ الجملة المنفيَّة في جواب القَسَم إذا كانت اسميَّة تُنفى بـ «ما» لا غير، ولا تنفى بـ «لا» إلا الجملة المصدَّرة بمضارع كثيراً وبماضٍ في معناه قليلاً[3]. انتهى. وظاهر كلام ابن مالك في «التسهيل»[4] إطلاق وقوع الجملة المنفيَّة جواباً للقَسَم. وقال في «شرح الكافية»: إنَّ الجملة الاسميَّة تقع جواباً للقَسَم مصدَّرة بـ «لا» النافية، لكن يجب تكرارها إذا تقدَّم خبرها أو كان المبتدأ معرفة، نحو: واللهِ لا في الدارِ رجلٌ ولا امرأةٌ،

---

(١) الإملاء ٤/ ، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

(٢) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٦٤.

(٤) ص١٥٢.

و: واللهِ لا زيدٌ في الدار ولا عمرٌو، ومنه يُعلَم أنَّ المسألة خلافيَّة بين هذين الإمامين.

وقرأ ابن عباس وعبد الله وأصحابه: «ربُّ المشارق والمغارب» بجمعهما[1]، وقد تقدَّم الكلام في وجه الإفراد والجمع.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ لترتيب الأمر وموجبه على اختصاص الألوهيَّة والربوبيَّة به عزَّ وجلَّ، و«وكيل» فعيل بمعنى مفعول، أي: موكول إليه، والمراد مِن اتِّخاذه سبحانه وكيلاً أن يعتمدَ عليه سبحانه ويُفوِّض كلَّ أمر إليه عزَّ وجلَّ، وذُكر أنَّ مقام التوكُّل فوق مقام التبتُّل؛ لِمَا فيه من رفع الاختيار، وفيه دلالة على غاية الحبِّ له تعالى، وأنشدوا:

هواي له فرضٌ تعطَّفَ أم جفا ... ومنهله عَذْبٌ تكدَّرَ أم صفا
وكَلْتُ إلى المعشوق أمريَ كلَّه ... فإن شاء أحياني وإن شاء أتْلَفا[2]

ومِن كلام بعض السادة: مَن رضيَ بالله تعالى وكيلاً وجد إلى كلِّ خير سبيلاً.

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ممَّا يؤلمك مِن الخرافات، كقولهم: يُفرِّق بين الحبيب وحبيبه. على ما سمعت في بعض روايات أسباب النزول.

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ بأن تُجانبهم وتُداريهم ولا تكافئهم[3]، وتَكِلَ أمورهم إلى ربِّهم كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: خَلِّ بيني وبينهم وكِلْ أمرَهم إليَّ فإنَّ فيَّ ما يفرغُ بالك ويجلي همَّك، ومرَّ في ﴿نٓ﴾ تمام الكلام في ذلك.

وجوَّز في «المكذِّبين» هنا أن يكونوا هم القائلين، ففيه وضع الظاهر موضعَ المضمر، وسماً لهم بميسم الذَّمِّ مع الإشارة إلى علَّة الوعيد، وجوَّز أن يكونوا بعضَ القائلين، فهو على معنى: ذرني والمكذِّبين منهم.

والآية قيل: نزلت في صناديد قريش المستهزئين، وقيل في المطعمين يوم بدر.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٧٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.
(٢) لم نقف عليها.
(٣) المكافأة: المجازاة على فعلهم وكفرهم. حاشية الشهاب ٨/ ٢٦٦.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أرباب التنعُّم وغَضارة العيش وكثرة المال والولد، فالنَّعمة ـ بالفتح ـ التنعُّم، وأما بالكسر فهي الإنعام وما يُنعَم به، وأما بالضَّمِّ فهي المسرَّة.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ أي: زماناً قليلاً وهو مدَّة الحياة الدنيا، وقيل: المدَّة الباقية إلى يوم بدر. وأيًّا ما كان فـ «قليلاً» نصب على الظرفيَّة، وجوّز أن يكون نصباً على المصدريَّة، أي: إمهالاً قليلاً، والتفعيل؛ لتكثير المفعول.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ جمع: نكل بكسر النون وفتحها، وهو القيدُ الثقيل، وقيل: الشديد. وقال الكلبيُّ: الأنكال: الأغلال. والأوَّل أعرف في اللغة. وعن الشعبيِّ: لم تجعل الأنكال في أرجلهم خوفاً مِن هربهم، ولكن إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم.

والجملة تعليل لقوله تعالى: «ذرني» وما عطف عليه، فكأنَّه قيل: كِلْ أمرَهم إليَّ ومَهِّلهم قليلاً؛ لأنَّ عندي ما أنتقم به منهم أشدَّ الانتقام أنكالاً ﴿وَجَحِيمًا ۝١٢﴾ ناراً شديدة الإيقاد ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلوق، ولا يكاد يُساغ، كالضريع والزَّقُّوم، وعن ابنِ عباس: شوكٌ مِن نار يَعترضُ في حلوقهم لا يَخرج ولا ينزل.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يُقادر قَدْره ولا يَعرف كُنهه إلا الله عزَّ وجلَّ، كما يشعر بذلك المقابلة والتنكير.

وما أعظم هذه الآية! فقد أخرج الإمام أحمد في «الزهد»، وابن أبي داود في «الشريعة»، وابن عدي في «الكامل»، والبيهقي في «الشعب» من طريق حُمْران بنِ أَعْيَن، عن أبي حرب بنِ الأسود أنَّ النبيَّ ﷺ سمع رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ إلخ، فصعق[١]، وفي رواية: أنَّه عليه الصلاة والسلام نفسَه قرأ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ فلما بلغ: «أليماً» صعق[٢]. وقال خالد بنُ حسان: أمسى عندنا الحسن

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٩، والكامل لابن عدي ٢/ ٨٤٢، وشعب الإيمان للبيهقي (٩١٧)، ولم نقف عليه بهذا السياق في مطبوع الزهد، وهو مرسل، وحمران بن أعين ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٦، وهناد في الزهد أيضاً (٢٦٧)، والطبري في التفسير ٢٣/ ٣٨٥. والعلة فيه كسابقه.

وهو صائم، فأتيته بطعام فعَرَضَتْ له هذه الآية: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ إلخ، فقال: ارفعه، فلما كانت الليلة الثانية أتيته بطعام فعَرَضت له أيضاً، فقال: ارفعه. وكذلك الليلة الثالثة، فانطلق ابنُه إلى ثابت البناني ويزيد الضبيِّ ويحيى البكّاء فحدَّثهم بحديثه، فجاؤوا معه فلم يزالوا به حتى شرب شربةً مِن سَوِيق[1].

وفي الحديث السابق ـ إذا صحَّ ـ ما يقيم العذرَ للصوفيَّة ونحوِهم الذين يُصعَقُون عند سماع بعض الآيات، ويُقْعِدُ[2] إنكار عائشة ﵂ ـ ومن وافقها ـ عليهم، اللَّهمَّ إلا أن يقال: إنَّ الإنكار ليس إلا على مَن يَصدرُ منه ذلك اختياراً، وهو أهلٌ لأن يُنكر عليه كما لا يخفى، أو يقال: صَعِقَ مِن الصَّعْق بسكون العين، وقد يحرَّك: غُشِيَ عليه، لا مِن الصَّعَق بالتحريك: شدَّة الصوت، وذلك ممَّا لم تنكره عائشة ﵂ ولا غيرها.

وللإمام في الآية كلام على نحوِ كلام الصوفيَّة، قال: اعْلَم أنَّه يُمكن حَمْلُ هذه المراتب الأربعة على العقوبة الروحانيَّة، أمَّا الأنكال فهي عبارة عن بقاء النفس في قيد التعلُّقات الجسمانيَّة واللَّذَّات البدنيَّة، فإنها في الدنيا لمَّا اكتسبت مَلَكَةَ تلك المحبَّة والرغبة، فبعد البَدَن يشتدُّ الحنين، مع أنَّ آلاتِ الكسب قد بطلت فصارت تلك كالأنكال والقيود المانعة له مِن التخلُّص إلى عالم الروح والصفاء، ثم يتولَّد من تلك القيود الروحانيَّة نيرانٌ روحانيَّة، فإنَّ شدَّة ميلها إلى الأحوال البدنيَّة وعدم تمكُّنها مِن الوصول إليها تُوجِب حُرْقة شديدة روحانيَّة كمن تشتدُّ رغبته في وجدان شيءٍ ثم إنَّه لا يجده، فإنَّه يَحترق قلبه عليه، فذاك هو الجحيم، ثم إنَّه يتجرَّع غصَّة الحرمان وألم الفراق، فذاك هو المراد من قوله سبحانه: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، ثم إنَّه بسبب هذه الأحوال بقي محروماً عن تجلِّي نور الله تعالى والانخراط في سلك القُدْسيين، وذلك هو المراد بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، وتنكير «عذاباً»

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٤٦ من طريق صالح، عن خليد، عن صالح بن حسان، قال: أمسى الحسن صائماً... الخبر. وأخرجه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٦ من طريق صالح المري عن خليد بن حسان قال: أمسى الحسن صائماً.... الخبر.

(٢) في الأصل: ويقصد.

يدلُّ على أنَّه أشدُّ ممَّا تقدَّم وأكمل، واعْلَم أنِّي لا أقول: المراد بالآية ما ذكرتُه فقط، بل أقول: إنَّها تُفيد حصولَ المراتب الأربعة الجسمانيَّة وحصولَ المراتب الأربعة الروحانيَّة، ولا يمتنع الحَمْل عليهما وإن كان اللفظ بالنسبة إلى المراتب الجسمانيَّة حقيقةً، وبالنسبة إلى المراتب الروحانيَّة مجازاً، لكنَّه مجاز متعارَف مشهور[1]. انتهى.

وتُعقِّب بأنَّه بالحمل عليهما يلزم الجمعُ بين الحقيقة والمجاز أو عموم المجاز مِن غير قرينة، وليس في الكلام ما يدلُّ عليه بوجهٍ من الوجوه، وأنتَ تعلم أنَّ أكثرَ باب الإشارة عند الصوفيَّة مِن هذا القبيل.

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ قيل: متعلِّق بـ «ذرني»، وقيل: صفة «عذاباً»، وقيل: متعلِّق بـ «أليماً»، واختار جمعٌ أنَّه متعلِّق بالاستقرار الذي تعلَّق به «لدينا»، أي: استقرَّ ذلك العذاب لدينا وظهر يوم تَضْطرب الأرض والجبال وتتزلزل.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «تُرْجَفُ» مبنيًّا للمفعول[2].

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿كَثِيبًا﴾ رَمْلاً مجتمعاً، مِن كَثَب الشيءَ: إذا جمعه، فكأنَّه في الأصل فعيل بمعنى مفعول، ثم غَلب حتى صار له حكم الجوامد، والكلام على التشبيه البليغ، وقيل: لا مانعَ مِن أن تكون رملاً حقيقةً.

﴿مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ قيل: أي: رخواً ليِّناً إذا وَطِئَتْه القَدَمُ زلَّ مِن تحتها، وقيل: منثوراً، مِن هِيْلَ هَيْلاً: إذا نُثرَ وأُسيل، وكونه «كثيباً» باعتبار ما كان عليه قبل النثر، فلا تنافيَ بين كونه مجتمِعاً ومنثوراً، وليس المراد أنَّه في قوَّة ذلك وصدده كما قيل.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ خطاب للمكذِّبين أُولي النَّعمة، سواء جعلوا القائلين أو بعضَهم، ففيه التفاتٌ مِن الغيبة، وهو التفات جليلُ الموقع، أي: إنَّا أرسلنا إليكم أيُّها المكذِّبون مِن أهل مكة ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يَشهد يوم القيامة بما صَدَرَ عنكم

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ١٨١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٤.

مِن الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥﴾ هو موسى عليه السلام، وعدم تعيينه؛ لعدم دخله في التشبيه، أو لأنَّه معلوم غنيٌّ عن البيان.

﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ المذكورَ الذي أرسلناه إليه، فالتعريف للعهد الذكري، والكاف في محلِّ النصب على أنَّها صفةٌ لمصدر محذوف على تقدير اسمِيَّتها، أي: إرسالاً مثل إرسالنا، أو الجارُّ والمجرور في موضع الصفة على تقدير حرفيتها، أي: إرسالاً كائناً كما، والمعنى: أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم فعصيتموه كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه. وفي إعادة «فرعون» و«الرسول» مُظْهَرَيْن تفظيع لشأنِ عصيانه، وأنَّ ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى، وفيه أنَّ عصيان المخاطبين أفظعُ وأدخل في الذَّمِّ إذ زاد جلَّ وعلا لهذا الرسول وصفاً آخرَ، أعني: «شاهداً عليكم»، وأدمج فيه أنهم لو آمنوا كانت الشهادة لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾ - أي: ثقيلاً رديء العُقْبى، مِن قولهم: كَلأٌ وَبِيْلٌ: وَخِيمٌ لا يُسْتَمْرأ لثقله، والوَبِيْل أيضاً: العصا الضخمة، ومنه: الوابل: للمطر العظيم قَطْره - خارجٌ عن التشبيه جِيءَ به لإيذان المخاطبين بأنَّهم مأخوذون بمثل ذلك وأشدّ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ مرتَّب[1] على الإرسال فالعصيان، و«يوماً» مفعول به لـ «تتقون»، إمَّا بتقدير مضاف، أي: عذابَ - أو: هولَ - يوم، أو بدونه، إلا أنَّ المعنى عليه، وضمير «يجعل» لليوم، والجملة صفته، والإسناد مجازيٌّ، وقال بعضٌ: الضمير تعالى، والإسناد حقيقيٌّ، والجملة صفةٌ محذوفةُ الرابط، أي: يجعل فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وكان ظاهر الترتيب أن يقدَّم على قوله تعالى: «كما أرسلنا» إلا أنَّما أُخِّر إلى هنا زيادةً على زيادة في التهويل، فكأنَّه قيل: هَبُوا أنَّكم لا تُؤخَذون في الدنيا أَخْذَةَ فرعون وأَضْرابِه، فكيف تَقُونَ أنفسَكم هولَ القيامة وما أُعِدَّ لكم مِن الأنكال إن دمتُم على ما أنتم عليه ومُتُّم في الكفر.

---

(١) في (م): مراتب.

وفي قوله سبحانه: «إن كَفَرتُم» وتقديره تقديرَ مشكوكٍ في وجوده ما يُنبِّه على أنَّه لا ينبغي أن يَبقى مع إرسال هذا الرسول لأحدٍ شبهةٌ تُبقيه في الكفر، فهو النور المبين.

وجوّز أن يكون «يوماً» ظرفاً لـ «تتَّقون»، على معنى: فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا، والكلام حينئذٍ للحثِّ على الإقلاع مِن الكفر، والتحذير عن مِثْلِ عاقبة آلِ فرعون قَبْلَ أن لا ينفعَ الندم.

وجوّز أيضاً أن ينتصب بـ «كفرتم» على تأويل: جحدتم، والمعنى: فكيف يُرجى إقلاعكم عن الكفر واتِّقاء اللهِ تعالى وخشيتُه وأنتم جاحدونَ يومَ الجزاء، كأنَّه لما قيل: «يوم ترجف» عقَّب بقوله تعالى: «فكيف تتقون» الله «إن كفرتم» به، فأعيد ذِكْر اليوم بصفة أُخرى زيادةً في التهويل، والوجه الأوَّل أَولى، قاله في «الكشف».

وقال العلامة الطيبيُّ في الوجه الأخير ـ أعني: انتصاب «يوماً» بـ «كفرتم» ـ: إنَّه أوفقُ للتأليف، يعني: خوَّفناكم بالأنكال والجحيم، وأرسلنا إليكم رسولاً شاهداً يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم، وأنذرناكم بما فعلنا بفرعونَ مِن العذاب الوبيل والأَخْذِ الثقيل، فما نَجَعَ فيكم ذلك كلُّه ولا اتَّقيتم اللهَ تعالى، فكيف تتَّقونه وتخْشَونه إن جحدتم يومَ القيامة والجزاء، وفيه أنَّ مِلاكَ التقوى والخشية الإيمانُ بيومِ القيامة. انتهى. ولا يخفى أنَّ جزالة المعنى ترجِّح الأوَّل.

وذهب جمع إلى أنَّ الخطاب في: «إنَّا أرسلنا إليكم» عامٌّ للأسود والأحمر، فالظاهر أنَّه ليس مِن الالتفات في شيء.

وأيَّاما كان فجعل الولدان شيباً ـ أي: شيوخاً جمع: أشيب ـ قيل: حقيقة، فتشيب الصبيان وتبيضُّ شُعورهم مِن شدَّة يوم القيامة، وذلك على ما أخرج ابنُ المنذر عن ابنِ مسعود حين يقول الله تعالى لآدم عليه السلام: قُمْ فأَخْرِج من ذُرِّيَّتك بَعْثَ النار. فيقول: يا ربِّ، لا عِلْمَ لي إلَّا ما علَّمتني؟ فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: أَخرِج بَعْثَ النارِ مِن كلِّ ألف تسْعَ مئة وتسعةً وتسعين، فيُخرجون ويُساقون إلى النار سَوقاً

مقرَّنين زُرْقاً كالِحِين، قال ابنُ مسعود: فإذا خرج بَعْثُ النار شابَ كلُّ وليد[(١)]. وفي حديث الطبراني وابنِ مردويه عن ابنِ عباس نحو ذلك[(٢)].

وقيل: مَثَلٌ في شدَّة الهول مِن غير أن يكون هناك شَيْب بالفعل، فإنَّهم يقولون في اليوم الشديد: يومٌ يُشيِّب نواصي الأطفال. والأصل في ذلك أنَّ الهموم إذا تفاقمت على المرء أَضْعَفَتْ قواه وأَسرعتْ فيه الشيب، ومن هنا قيل: الشيب نوار الهموم، وحديث البعث لا يأبى هذا.

وجوّز الزمخشريُّ[(٣)] أن يكون ذلك وصفاً لليوم بالطُّول، وأنَّ الأطفالَ يبلغون فيه أوانَ الشيخوخةِ والشيب. وليس المراد به التقدير الحقيقيّ، بل وُصفَ بالطول فقط على ما تَعارفوه، وإلا فهو أطولُ مِن ذاك وأطول، فلا اعتراضَ، لكنَّه مع هذا ليس بذاك.

والظاهر عموم الولدان، وقال السُّدِّيُّ: هم هنا أولادُ الزنى. وقيل: هم أولاد المشركين.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ «يَوْمَ» بغير تنوين، «نَجْعَلُ» بالنون[(٤)]، فالظرف مضافٌ إلى جملة نجعل.. إلخ.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ أي: منشقٌّ، وقُرِئَ: «مُتَفَطِّر»[(٥)]، أي: مُتَشقِّق ﴿بِهِۦ﴾ أي: بذلك اليوم، والباء للآلة، مِثْلُها في قولك: فطرتُ العودَ بالقَدُوم فانفطر به، يعني أنَّ السماء على عِظَمِها وإحكامها تَنفطِرُ بشدَّة ذلك اليوم وهولِه كما ينفطر الشيءُ مما يُفطَر به، فما ظنُّك بغيرها مِن الخلائق؟ وجوّز أن يُراد: السماءُ مُثقَلة به الآن إثقالاً يؤدِّي إلى انفطارها؛ لعِظَمِه عليها وخشيتها مِن وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٧٩، والمعجم الكبير (١٢٠٣٤). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٧٠، ١٣٠: فيه عثمان بن عطاء الخراساني، وهو ضعيف.
(٣) الكشاف ٤/ ١٧٨.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٦٥.
(٥) الكشاف ٤/ ١٧٨.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] فالكلام من باب التخييل، والانفطار كناية عن المبالغة في ثِقَلِ ذلك اليوم، والمراد إفادة أنَّه الآن على هذا الوصف. والأوَّل أظهر وأوفق لأكثر الآيات.

وكان الظاهر: السماء منفطرةٌ، بتأنيث الخبر؛ لأنَّ المشهور أنَّ السماء مؤنَّثة، لكن اعتبر إجراء ذلك على موصوف مذكَّر فذُكِّر، أي: شيء منفطر به، والنكتةُ فيه التنبيهُ على أنَّه تبدلَّت حقيقتُها وزال عنها اسمُها ورَسْمُها، ولم يَبْقَ منها إلا ما يُعبَّر عنه بالشيء. وقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والكسائي، وتبعهم منذر بنُ سعيد: التذكير؛ لتأويل السماء بالسَّقف[1]، وكأنَّ النكتةَ فيه تذكيرُ معنى السقيفة والإظلال ليكون أمرُ الانفطار أدهشَ وأهولَ.

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: التقدير: ذات انفطار، كقولهم: امرأة مرضع، أي: ذات رضاع، فجرى على طريق التسبُّب[2]، وحكي عنه أيضاً أنَّ هذا مِن باب: الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، وأعجاز نَخْل مُنْقَعِر، يعني أنَّ السماء مِن باب اسم الجنس الذي بينه وبين مفرده تاءُ التأنيث، وأنَّ مفرده: سماءة، واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث، فجاء «منفطر» على التذكير.

وقال الفرَّاء: «السماء» ـ يعني المظلَّة ـ تذكَّر وتؤنَّث، فجاء «منفطر» على التذكير، ومنه قول الشاعر:

فلو رَفَعَ السماءُ إليه قوماً لَحِقْنا بالسماءِ وبالسَّحابِ[3]

وعليه لا حاجةَ إلى التأويل، وإنَّما تطلب نكتة اعتبار التذكير مع أنَّ الأكثر في الاستعمال اعتبار التأنيث، ولعلَّها ظاهرة لمَن له أدنى فهم، وحَمْل الباء في «به» على الآلة هو الأوفق لتهويل أمر ذلك اليوم، وجوّز حَمْلها على الظرفيَّة، أي: السماءُ منفطرٌ فيه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٩، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٦.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٩٩، والمذكَّر والمؤنَّث ص٣١، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٣٣، وفيه: الإله، بدل: السماء. و: مع السحاب، بدل: وبالسحاب.

وعَودُ الضمير المجرور على اليوم هو الظاهر الذي عليه الجمهور، وقال مجاهد: يعود على الله تعالى، أي: بأمره سبحانه وسلطانه عزَّ وجلَّ. فهو عنده كالضمير في قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨﴾ فإنَّه له تعالى لعِلْمه مِن السياق، والمصدر مضاف إلى فاعله، ويجوز أن يكون لليوم كضمير «به» عند الجمهور، والمصدر مضاف إلى مفعوله.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ بالتقرُّب إليه تعالى بالإيمان والطاعة، فإنَّه المنهاجُ الموصِل إلى مرضاته عزَّ وجلَّ، ومفعول «شاء» محذوف، والمعروف في مثله أن يقدَّر مِن جنس الجواب، أي: فمن شاء اتِّخاذ سبيل إلى ربِّه تعالى اتَّخذ... إلخ، وبعضٌ قدَّره: الاتِّعاظ؛ لمناسبة ما قَبْلُ، أي: فمن شاء الاتِّعاظ اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً، والمراد: مَن نَوى أن يَحصُل له الاتِّعاظُ تقرَّب إليه تعالى، لكن ذكر السبب وأُريد مسببه فهو الجزاء في الحقيقة، واختار في «البحر»(١) ما هو المعروف، وقال: إنَّ الكلام على معنى الوعد والوعيد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: زماناً أقلَّ منهما، استعمل فيه الأدنى ـ وهو اسم تفضيل مِن دنا إذا قَرُب ـ لما أنَّ المسافة بين الشيئين إذا دَنَتْ قَلَّ ما بينهما مِن الأحياز، فهو فيه مجاز مرسَل؛ لأنَّ القُرْبَ يقتضي قلَّة الأحياز بين الشيئين، فاستعمل في لازمه أو في مُطلَق القلَّة، وجوّز اعتبار التشبيه بين القُرب والقلَّة ليكون هناك استعارة، والإرسال أقرب.

وقرأ الحسن وشيبة وأبو حيوة وابن السميفع وهشام، وابن مجاهد عن قنبل ـ فيما ذكر صاحب «الكامل» ـ «ثُلْثَي» بإسكان اللام(٢)، وجاء ذلك عن نافع وابن عامر فيما ذكر صاحب «اللوامح».

﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفاً على «أدنى»، كأنَّه قيل: يعلم أنَّكَ تقوم مِن الليل أقلَّ مِن ثلثيه وتقوم نصفه وتقوم ثلثه.

---

(١) ٨/ ٣٦٦.

(٢) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٢١٧ عن هشام، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٣٦٦.

وقرأ العربيَّان ونافع: «ونِصْفِه وثُلُثِه» بالجرِّ[١] عطفاً على «ثلثي الليل»، أي: تقوم أقلَّ من الثلثين وأقلَّ من النصف وأقلَّ من الثلث، والأوَّل مطابق لكون التخيير فيما مرَّ بين قيام النصف بتمامِه وبين قيام الناقص منه وهو الثلث، وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى مِن الثلثين، والثاني مطابق لكون التخيير بين النصف وهو أدنى مِن الثلثين، وبين الثلث وهو أدنى من النصف، وبين الربع وهو أدنى من الثلث، كذا قال غير واحد، فلا تغفل، واستشكل الأمر بأنَّ التفاوت بين القراءتين ظاهر، فكيف وجه صحَّة عِلْم الله تعالى لمدلولهما وهما لا يجتمعان؟

وأجيب بأنَّ ذلك بحسب الأوقات، فوقع كلّ في وقت، فكانا معلومين له تعالى.

واستشكل أيضاً هذا المقام على تقدير كون الأمر وارداً بالأكثر، بأنَّه يلزم: إمَّا مخالفة النبيِّ ﷺ لِمَا أُمرَ به، أو اجتهاده والخطأ في موافقة الأمر. وكلاهما غير صحيح؛ أمَّا الأوَّل فظاهر لا سيَّما على كون الأمر للوجوب، وأمَّا الثاني فلأنَّ مَن جوَّز اجتهادَه عليه الصلاة والسلام والخطأَ فيه، يقول: إنَّه لا يُقَرُّ عليه الصلاة والسلام على الخطأ؟

وأجيب بالتزام أنَّ الأمر وارد بالأقلّ، لكنَّهم زادوا حذراً مِن الوقوع في المخالفة وكان يشقُّ عليهم، وعِلْم الله سبحانه أنَّهم لو لم يأخذوا بالأشقِّ وقعوا في المخالفة فنسخ سبحانه الأمر، كذا قيل، فتأمَّل فالمقام بَعْدُ محتاج إليه.

وقرأ ابن كثير في رواية شبل: «وثُلْثه» بإسكان اللام[٢].

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ عطف على الضمير المستتر في «تقوم»، وحسَّنه الفصلُ بينهما، أي: وتقوم معك طائفةٌ من أصحابك.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ لا يَعلَمُ مقاديرَ ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى، فإنَّ تقديمَ اسمِه تعالى مبتدأً مبنيًّا عليه «يُقدِّر» دالٌّ على الاختصاص على

(١) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٦ والكلام منه.
(٢) السبعة لابن مجاهد ص٦٥٨، والقراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٦.

ما ذهب إليه جارُ الله[١]، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ فإنَّ الضمير لمصدر «يُقدِّر» لا للقيام المفهوم مِن الكلام، والمعنى: عَلِمَ أنَّ الشأنَ لن تقدروا على تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضَبْطَ الساعات، ولا يتأتَّى لكم حسابها بالتعديل والتسوية، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط، وذلك شاقٌّ عليكم بالغ منكم[٢].

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالترخيص في تَرْكِ القيام المقدَّر، ورفع التَّبِعةِ عنكم في تَرْكه، فالكلام على الاستعارة حيث شبَّه الترخيصَ بقبول التوبة في رَفْعِ التبعة، واستعمل اللفظ الشائع في المشبَّه به في المشبَّه، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] وزعم بعضهم أنَّه على ما يتبادر منه، فقال: فيه دليلٌ على أنَّه كان فيهم مَن تَرَك بعضَ ما أُمر به، وليس بشيء.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: فصلُّوا ما تيسَّر لكم مِن صلاة الليل، عبَّر عن الصلاة بالقراءة كما عبَّر عنها بسائر أركانها. وقيل: الكلام على حقيقته مِن طَلَب قراءة القرآن بعينِها. وفيه بُعْدٌ عن مقتضى السياق.

ومن ذهب إلى الأوَّل قال: إنَّ الله تعالى افترض قيامَ مقدارٍ معيَّن مِن الليل في قوله سبحانه: (قُمِ ٱلَّيْلَ) إلخ، ثم نُسخَ بقيام مقدارٍ مّا منه في قوله سبحانه: (فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟) الآية، فالأمر في الموضعين للوجوب، إلا أنَّ الواجب أوَّلاً كان معيَّناً مِن معيَّنات، وثانياً كان بعضاً مطلقاً ثم نُسخَ وجوبُ القيام على الأمَّة مطلقاً بالصلوات الخمس. ومَن ذهب إلى الثاني قال: إنَّ الله تعالى رخَّص لهم في ترك جميع القيام وأَمَرَ بقراءة شيء مِن القرآن ليلاً، فكأنَّه قيل: فتاب عليكم ورخَّص في التَّرْك فاقرؤوا ما تيسَّر مِن القرآن إن شَقَّ عليكم القيامُ، فإنَّ هذا لا يشقُّ وتنالونَ بهذه القراءة ثوابَ القيام، وصرَّح جمع أنَّ «فاقرؤوا» على هذا أمرُ ندبٍ بخلافه على الأوَّل.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٧٨-١٧٩.

(٢) جاء في هامش الأصل: لا يخفى أن يستفاد من هذا التفسير الاستدلال على صحة التكليف بما لا يطاق، ليس بشيء. انتهى منه.

هذا، واعلم أنَّهم اختلفوا في أَمْرِ التهجُّد؛ فعن مقاتل وابنِ كيسان أنَّه كان فرضاً بمكَّة قَبْلَ أن تُفرَض الصلوات الخمس ثم نُسخَ بهنَّ إلا ما تطوَّعوا به، ورواه البخاريُّ ومسلم في حديث جابر[1].

وروى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والدارمي وابنُ ماجه والنسائيُّ عن سعد بنِ هشام قال: قلت لعائشةَ: يا أمَّ المؤمنين أَنْبِئيني عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ؟ قالت: ألستَ تَقرأُ القرآنَ؟ قلت: بلى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نبيِّ اللهِ تعالى القرآنُ. قال: فَهَمَمْتُ أن أقومَ ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموتَ، ثم بدا لي فقلت: أنبِئيني عن قيام رسولِ الله ﷺ؟ فقالت: ألستَ تَقرأُ: «يا أيُّها المزمِّل»؟ قلتُ: بلى. قالت: فإنَّ اللهَ تعالى افترَض قيامَ الليل في أوَّل هذه السورة، فقام نبيُّ الله وأصحابه حَوْلاً، وأمسك اللهُ تعالى خاتمتها اثني عَشَر شهراً في السماء حتى أنزلَ اللهُ تعالى في آخِر السورة التخفيفَ، وصار قيامُ الليل تطوُّعاً[2]. وفي رواية عنها: إنَّه دام ذلك ثمانية أشهر[3]. وعن قتادة: دام عاماً أو عامين.

وعن بعضهم أنَّه كان واجباً وإنما وقع التخيير في المقدار، ثم نُسِخَ بعد عشر

---

(١) لم نقف عليه في الصحيحين من حديث جابر، بل أورده المقريزي في مختصر قيام الليل ص٧ عن جابر بلفظ: أن النبيَّ ﷺ بعثهم في جيش وأمَّر عليهم أبا عبيدة، وقد كان كُتب عليهم قيامُ الليل، فكانوا يقومون حتى انتفخت أقدامهم، فأصابهم في ذلك الوجه جوع شديد، قال: ووضع الله عنهم قيام الليل. وأصل الخبر عند البخاري (٢٤٨٣)، ومسلم (١٩٣٥) دون ذكر قيام الليل، ونقل المقريزي في مختصر قيام الليل ص٩-١٠ عن المروزي قوله: كيف يجوز أن تكون الصلوات الخمس نَسخت قيامَ الليل، والصلوات الخمس مفروضات في أول الإسلام والنبيُّ ﷺ بمكة فرضت عليه ليلة أسري به، والأخبار التي ذكرناها تدل على أن قوله تعالى: «فاقرؤوا ما تيسر من القرآن» إنما نزل بالمدينة... وفي حديث جابر أن النبي ﷺ بعثهم في الجيش، وقد كان كُتب عليهم قيامُ الليل، وبعثة الجيوش لم يكن إلا بعد قدوم النبي ﷺ المدينة؟! إلى آخر كلامه. وينظر حديث جابر في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥١.

(٢) أحمد (٢٤٢٦٩)، ومسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والدارمي (١٤٧٥)، وابن ماجه (١١٩١) و(١٣٣٥)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٢١٨.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٢٣/ ٣٥٩-٣٦٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٧٦ وزاد نسبته لابن أبي حاتم أيضاً.

سنين، وكان الرجل ـ كما قال الكلبيُّ ـ يقوم حتى يصبحَ مخافةَ أن لا يحفظَ ما بين النصف والثلث والثلثين.

وقيل: كان نفلاً، بدليل التخيير في المقدار، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] حكاه غير واحد وبحثوا فيه، لكنْ قال الإمام صاحب «الكشف»: لم يُرِد هذا القائل أنَّ التخييرَ ينافي الوجوبَ، بل استدلَّ بالاستقراء وأنَّ الفرائضَ لها أوقات محدودة متَّسعةً كانت أو ضيِّقةً، لم يُفوَّض التحديد إلى رأي الفاعل، وهو دليل حسن، وأمَّا القائل بالفَرْضيَّة فقد نظر إلى اللفظ دون الدليل الخارجي، ولكلٍّ وجه، وأمَّا قوله: ولقوله تعالى: (وَمِنَ ٱلَّيْلِ) إلخ فالاستدلال بأنَّه فسَّر (نَافِلَةً لَّكَ) بأنَّ معناه: زائدة على الفرائض لك خاصَّة دون غيرك؛ لأنَّها تطوُّع لهم، وهذا القائل لا يمنع الوجوبَ في حقِّه عليه الصلاة والسلام وإنَّما يمنعه في حقِّ غيرِه ﷺ، والآية تدلُّ عليه، فلا نظر فيه. ثم إنَّه لمَّا ذكر سبحانه في تلك السورة: (وَمِنَ ٱلَّيْلِ) أي: خصَّ بعضَ الليل دون توقيت، وهاهنا وقَّت ـ جلَّ وعلا ـ ودلَّ على مشاركةِ الأمَّة له عليه الصلاة والسلام قولُه تعالى: (وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ) نزَّل ما ثَمَّ على الوجوب عليه ﷺ خاصَّة، وهاهنا على التنفُّل في حقِّه وحقِّ الأمَّة، وهذا قول سديد إلا أنَّ قولَه تعالى: (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ) يؤيِّد الأوَّل. انتهى.

وعنى بالأوَّل القولَ بالفَرْضيَّة عليه عليه الصلاة والسلام وعلى الأمَّة، وظواهر الآثار الكثيرة تَشهدُ له، لكن في «البحر» أنَّ قولَه تعالى: (وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ) دليل على أنَّه لم يكن فرضاً على الجميع، إذ لو كان فرضاً عليهم لكان التركيب: والذين معك، إلا إن اعتقد أنَّه كان منهم من يقوم في بيته، ومنهم من يقوم معه، فيمكن إذ ذاك الفَرْضيَّة في حقِّ الجميع[1]. انتهى.

وأنت تَعلمُ أنَّه لا يتعيَّن كون «من» تبعيضيَّة، بل تحتمل أن تكون بيانيَّة، ومن يقول بالفَرْضيَّة على الكُلِّ صدرَ الإسلام يَحملها على ذلك دون البعضيَّة باعتبار المعيَّة، فإنَّها ليست بذاك، والله تعالى أعلم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦٦.

وأفادت الآية على القول الأخير في قوله سبحانه: «فاقرؤوا» إلخ نَدْبَ قراءةِ شيء مِن القرآن ليلاً، وفي بعض الآثار: من قرأ مئة آية في ليلة لم يحاجَّه القرآن. وفي بعضها: من قرأ مئة آية كتب من القانتين. وفي بعض: خمسين آية[١].

والمعوَّل عليه مِن القولين فيه القولُ الأوَّل، وقد سمعتَ أنَّ الأمرَ عليه للإيجاب، وأنَّه كان يجب قيام شيء مِن الليل ثم نُسخَ وجوبه عن الأمَّة بوجوب الصلوات الخمس، فهو اليوم في حقِّ الأمَّة سُنَّة. وفي «البحر» بعد تفسير فاقرؤوا» بـ: صلُّوا، وحكاية ما قيل مِن النَّسْخ: وهذا الأمر عند الجمهور أَمْر إباحة، وقال الحسن وابن سيرين: قيام الليل فرضٌ ولو قَدْرَ حَلْبِ شاة. وقال ابن جبير وجماعة: هو فرض لا بُدَّ منه ولو بمقدار خمسين آية[٢]. انتهى.

وظاهر سياقه أنَّ هؤلاء قائلون بوجوبه اليوم وأنَّه لم يُنسَخ الوجوبُ مُطلَقاً، وإنَّما نُسخَ وجوبٌ معيَّن، وهذا خلافُ المعروف، فعن ابنِ عباس: سَقَطَ قيامُ الليل عن أصحاب رسولِ الله ﷺ وصار تطوُّعاً وبقي ذلك فرضاً على رسول الله عليه الصلاة والسلام. وأظنُّ الأمر غنيًّا عن الاستدلال، فَلْنَطْوِ بساطَ القِيل والقال، نعم كان السلف الصالح يُثابرون على القيام مُثابرتهم على فرائضِ الاسلام؛ لما في ذلك من الخَلْوة بالحبيب والأُنس به، وهو القريب مِن غير رقيب، نسأل الله تعالى أن يوفِّقنا كما وفَّقهم، ويَمُنَّ علينا كما مَنَّ عليهم.

بقي ها هنا بحث وهو أنَّ الإمامَ أبا حنيفة ﷺ استدلَّ بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ على أنَّ الفَرْضَ في الصلاة مُطلَق القراءة لا الفاتحة بخصوصِها، وهو ظاهرٌ على القول بأنَّه عبَّر فيه عن الصلاة بركنها وهو القراءة، كما عبَّر عنها بالسجود والقيام والركوع في مواضعَ، وقدّر ما تيسَّر بآية على ما حكاه عنه الماورديُّ[٣]، وبثلث على ما حكاه عنه ابن العربي[٤]، والمسألة مقرَّرة في الفروع.

---

(١) تنظر هذه الروايات في عمل اليوم والليلة لابن السني (٦٧١) و(٦٧٢)، والأذكار ص٩٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٧.
(٣) النكت والعيون ٦/ ١٣٣.
(٤) أحكام القرآن ٤/ ١٨٧١.

وخَصَّ الشافعيّ ومالك «ما تيسَّر» بالفاتحة، واحتجُّوا على وجوب قراءتها في الصلاة بحجج كثيرة:

منها ما نقل أبو حامد الإسفراييني عن ابنِ المنذر بإسناده عن أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام: «لا تجزئ صلاة لا يُقرَأ فيها بفاتحة الكتاب»[١].

ومنها ما روي أيضاً عن أبي هريرة عنه ﷺ: «كلُّ صلاةٍ لم يُقرَأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج»[٢] أي: نقصان؛ للمبالغة، أو: ذو نقصان. واعتُرض بأنَّ النقصانَ لا يدلُّ على عدم الجواز. وأُجيب بأنَّه يدلُّ؛ لأنَّ التكليفَ بالصلاة قائمٌ، والأصل في الثابت البقاءُ، خالفناه عند الإتيان بها على صفة الكمال، فعند النقصان وجب أن يَبقى على الأصل، ولا يَخرُجَ عن العهدة، وأكّد بقول أبي حنيفة بعدم جواز صومِ يومِ العيد قضاءً عن رمضان مع صحَّة الصوم فيه عنده، مستدلًّا عليه بأنَّ الواجب عليه الصومُ الكامل، والصوم في هذا اليوم ناقصٌ فلا يُفيد الخروجَ عن العهدة.

ومنها قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[٣] وهو ظاهر في المقصود، إذ التقدير: لا صلاةَ صحيحةٌ إلَّا بها، واعتُرض بجواز أن يكون التقدير: لا صلاةَ كاملةٌ، فإنَّه لمَّا امتنع نفي مسمَّى الصلاة لثبوته دون الفاتحة لم يكن بُدٌّ مِن صَرْفه إلى حُكْمٍ مِن أحكامها، وليس الصَّرْف إلى الصحة أَولى مِن الصرف إلى الكمال.

وأجيب بأنَّا لا نُسلِّم امتناع دخول النفي على مسمَّاها؛ لأنَّ الفاتحةَ إذا كانت جزءاً من ماهية الصلاة، تنتفي الماهية عند عدم قراءتها، فيصحُّ دخوله على مسمَّاها، وإنَّما يمتنع لو ثبت أنَّها ليست جزءاً منها، وهو أوَّل المسألة، سلَّمناه لكن لا نُسلِّم أنَّ صَرْفه إلى الصِّحَّة ليس أَولى مِن صرفه إلى الكمال، بل هو أَولى، لأنَّ الحمل على المجاز الأقرب عند تعذُّر الحمل على الحقيقة أَولى، بل واجب

---

(١) الأوسط لابن المنذر (١٢٩٩)، وهو بهذا اللفظ عند ابن خزيمة في صحيحه (٤٩٠)، وابن حبان في صحيحه (١٧٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥) (٤١)، وهو عند أحمد (٧٢٩١).

(٣) أخرجه مسلم (٣٩٤)، وهو عند أحمد (٢٢٦٧٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

بالإجماع، ولا شَكَّ أنَّ الموجود الذي لا يكون صحيحاً أقربُ إلى المعدوم مِن الموجود الذي لا يكون كاملاً، ولأنَّ الأصل بقاءُ ما كان ـ وهو التكليف ـ على ما كان، ولأنَّ جانبَ الحرمة أرجحُ؛ لأنَّه أحوط.

ومنها أنَّ الصلاةَ بدون الفاتحة تُوجِب فواتَ الفضيلة الزائدة مِن غير ضرورة؛ للإجماع على أنَّ الصلاةَ معها أفضلُ، فلا يجوز المصير إليه؛ لأنَّه قبيح عرفاً، فيكون قبيحاً شرعاً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما رآه المسلمونَ حسناً فهو عند الله حَسَن، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[(١)].

ومنها أنَّ قراءتها تُوجِب الخروجَ عن العهدة بيقين فتكون أحوطَ، فوجب القول بوجوبها لنصِّ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(٢)]، وللمعقول؛ وهو دَفْع ضرر الخوف عن النفس، فإنَّه واجب، وكونُ اعتقاد الوجوب يُورِث الخوفَ لجواز كوننا مخطئين معارَضٌ باعتقاد عَدَمه، فيتقابلان، وأمَّا في العمل فالقراءة لا تُوجِب الخوفَ وتَرْكُها يُوجبه، فالأحوط القراءةُ. إلى غير ذلك.

وأجاب ساداتنا الحنفيَّة بما أجابوا واستدلُّوا على أنَّ الواجبَ ما تيسَّر مِن القرآن لا الفاتحة بخصوصها بأمور:

منها ما روى أبو عثمان النهدي عن أبي هريرة أنَّه قال: أَمَرني رسولُ الله ﷺ أنْ أَخرُجَ وأنادي: «لا صلاةَ إلا بقراءة ولو بفاتحة الكتاب»[(٣)]. ودُفع بأنَّه معارَض بما نُقل عن أبي هريرة أنَّه قال: أَمَرني رسولُ الله ﷺ أن أَخرج وأنادي: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[(٤)]، وبأنَّه يجوز أن يكون المراد مِن قوله: «ولو بفاتحة

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٤/ ١٦٥، وفي إسناده سليمان بن عمرو النخعي، وهو متروك كما قال البخاري. الميزان ٢/ ٢١٦. وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٤٥٢) وقال: هذا الحديث إنما يعرف من كلام ابن مسعود. اهـ. وأخرجه موقوفاً على ابن مسعود أحمد (٣٦٠٠)، والبزار (١٣٠ - كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٨٥٨٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٧-١٧٨: رجاله موثوقون.

(٢) أخرجه سيف بن عمر في كتاب «وفاة النبيِّ ﷺ» من حديث ابن مسعود ﷺ، كما ذكر ابن كثير في تحفة الطالب (٣٤٤) و(٣٤٥) وقال: إسناده غريب جدًّا، وهو مأثور عن عبد الله بن مسعود بسند جيِّد. اهـ. والموقوف عند أحمد (٣٦٠٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٨١٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٨٢٠)، وهو عند أحمد (٩٥٢٩).

الكتاب». هو أنَّه لو اقتصر على الفاتحة لكفى، ويجب الحمل عليه جمعاً بين الأدلَّة، وفيه تعسُّف، ولعلَّ الأولى في الجواب جواز كون المراد: ولو بفاتحة الكتاب. ما هو السابق إلى الفهم مِن قول القائل: لا حياة إلا بقوت ولو الخبز كلَّ يوم أوقيَّة. وهو أنَّ هذا القدر لا بُدَّ منه، وعليه يصير الحديث مِن أدلَّة الوجوب.

ومنها أنَّه لو وجبت الفاتحة لصدق قولنا: كلَّما وجبت القراءة وجبت الفاتحة، ومعناه: مقدِّمة صادقة وهي أنَّه لو لم تجب الفاتحة لوجبت القراءة؛ لوجوب مُطلَق القراءة بالإجماع، فتنتج المقدِّمتان: لو لم تجب الفاتحة لوجبت الفاتحة، وهو باطل.

وأجيب بمنع الصغرى، أي: لا نُسلِّم صِدْقَ قولنا: لو لم تجب الفاتحة لوجبت القراءة، لأنَّ عدمَ وجوب الفاتحة محالٌ، والمحال جاز أن يستلزم المحالَ وهو رفع وجوب مُطلَق القراءة الثابت بالإجماع، سلَّمناها، لكن لا نُسلِّم استحالة قولنا: لو لم تجب الفاتحة لوجبت الفاتحة، لما ذُكرَ آنفاً، وجعل بعض القياس حجَّة على الحنفيَّة؛ لأنَّ كلَّ ما استلزم عدمُه وجودَه، ثبت وجودُه ضرورةً، ورُدَّ بأنَّ هذا إنَّما يلزم لو كانت الملازمةُ ـ وهي قولنا: لو لم تجب الفاتحة لوجبت ـ ثابتةً في نفس الأمر، وليس كذلك، بل هي ثابتة على تقدير وجوب قراءة الفاتحة، فلهذا لا يصير حجَّة عليهم، وتمام الكلام على ذلك في موضعه.

وأنتَ تعلم أنَّه على القول الثاني في الآية لا يظهر الاستدلالُ بها على فَرْضيَّة مُطلَق القراءة في الصلاة، إذ ليس فيها عليه أكثر مِن الأَمْر بقراءة شيء مِن القرآن ـ قلَّ أو كثر ـ بدل ما افترض عليهم مِن صلاة الليل، فليتنبه.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئناف مبيِّن لحكمةٍ أخرى غيرِ ما تقدَّم مِن عسرة إحصاء تقدير الأوقات، مقتضيةٍ للترخيص والتخفيف، أي: عَلِمَ أنَّ الشأن سيكون منكم مرضى ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يسافرون فيها للتجارة ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الرِّبْح، وقد عمّم ابتغاءَ الفَضْل لتحصيل العلم، والجملة في موضع الحال ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني المجاهدين، وفي قَرْنِ المسافرين لابتغاء فَضْل الله تعالى بهم إشارةٌ إلى أنَّهم نحوهم في الأجر، أخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وغيرهما عن عمر ﷺ قال: ما مِن حال يأتيني عليه

الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحبّ إليّ مِن أن يأتيني وأنا بين شعبتي جَبَل ألتمس مِن فضل الله تعالى، وتلا هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ﴾ إلخ(١).

وأخرج ابن مردويه عن ابنِ مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِن جالبٍ يَجلِبُ طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسِعْرِ يومِه إلَّا كانت منزلته عند الله، ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»(٢).

والمراد أنَّه عزَّ وجلَّ عَلِمَ أن سيكون مِن المؤمنين من يشقُّ عليه القيام، كما عَلِمَ سبحانه عُسْرَ إحصاء تقدير الأوقات، وإذا كان الأمرُ كما ذكرَ وتعاضدت مقتضيات الترخيص: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ أي: من القرآن مِن غير تحمُّل المشاقِّ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المفروضة ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كذلك، وعلى هذا أكثر المفسِّرين، والظاهر أنَّهم عَنَوا بالصلاة المفروضة الصلوات الخمس، وبالزكاة المفروضة أختها المعروفة، واستُشكل بأنَّ السورة مِن أوائل ما نَزَلَ بمكَّة ولم تُفرَض الصلوات الخمس إلا بعد الإسراء، والزكاة إنَّما فُرضَت بالمدينة؟ وأُجيبَ بأنَّ الذاهبَ إلى ذلك يجعل هذه الآيات مدنيَّة.

وقيل: إنَّ الزكاةَ فُرضَت بمكَّة مِن غير تعيين للأنصباء، والذي فُرِضَ بالمدينة تعيين الأنصباء، فيمكن أن يراد بالزكاة الزكاة المفروضة في الجملة، فلا مانعَ عن كون الآيات مكِّيَّة، لكنْ يُلتزم كونُها نزلت بعد الإسراء، وحملها على صلاة الليل السابقة ـ حيث كانت مفروضة ـ ينافي الترخيصَ.

وقيل: يجوز أن تكون الآية مما تأخَّر حكمه عن نزوله. وليس بذاك.

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ﴾ أريد به الإنفاقات في سُبُل الخيرات، أو أداءُ الزكاة على أحسن الوجوه وأنفعها للفقراء.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٠، وهو في الشعب (١٢٥٦)، وأورد له ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٩ ثلاثة أسانيد، وعزا الأول للثعلبي وضعَّفه، والثاني لابن معبد في الطاعة والمعصية، والثالث للبيهقي في الشعب.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٠، وضعَّفه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٧٣ (بهامش الإحياء).

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أيَّ خيرٍ كان ممَّا ذُكر وممَّا لم يذكر ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: مِن الذي تؤخِّرونه إلى الوصية عند الموت، و«خيراً» ثاني مفعولَي «تجدوه»، و«هو» تأكيد لضمير «تجدوه» وإن كان بصورة المرفوع والمؤكَّد منصوب؛ لأنَّ «هو» يستعار لتأكيد المجرور والمنصوب، كما ذكره الرضيُّ، أو ضمير فصل وإن لم يقع بين معرفتَيْن، فإنَّ: أفعل مِن، في حكم المعرفة، ولذا يمتنع من حرف التعريف كالعَلَم، وجوَّز أبو البقاء البدليَّة مِن ضمير «تجدوه»[(١)]، ووهَّمه أبو حيَّان[(٢)] بأنَّ الواجب عليها: إيَّاه.

وقرأ أبو السَّمَّال - باللام - العدوي، وأبو السماك - بالكاف - الغنوي، وأبو السميفع: «هو خيرٌ وأعظمُ» برفعهما[(٣)] على الابتداء والخبر، وجعل الجملة في موضع المفعول الثاني، قال أبو زيد: هي لغة بني تميم يرفعونَ ما بعد الفاصلة، يقولون: كان زيدٌ هو العاقلُ، بالرفع، وعليه قول قيس بنِ ذريح:

تَحِنُّ إلى لُبنى وأنتَ تركتَها وكنتَ عليها بالمَلَا أنتَ أقدرُ[(٤)]

فقد قال أبو عمرو الجرميُّ: أنشده سيبويه شاهداً للرفع والقوافي مرفوعة، ويروى: أقدرا.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ في كافَّة أحوالكم، فإنَّ الإنسان قلَّما يخلو مما يعدُّ تفريطاً بالنسبة إليه، وَعَدَّ مِن ذلك الصوفيَّةُ رؤيةَ العابد عبادته، قيل: ولهذه الإشارة أمر بالاستغفار بعد الأوامر السابقة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض الحَسَن.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ فيغفرُ سبحانه ذنبَ مَن استغفره ويرحمه عزَّ وجلَّ، وفي حذف المعمول دلالةٌ على العموم، وتفصيل الكلام فيه معلوم.

نسأل الله تعالى عظيمَ مغفرته ورحمته لنا ولوالدينا ولكافَّة مؤمني بَرِيَّته بحرمة سيِّد خليقته وسَنَد أهل صفوته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وشيعته.

---

(١) الإملاء ٤/ ٤٢٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٧ دون ذكر أبي السماك الغنوي.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٦٧، والبيت سلف عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الزخرف.